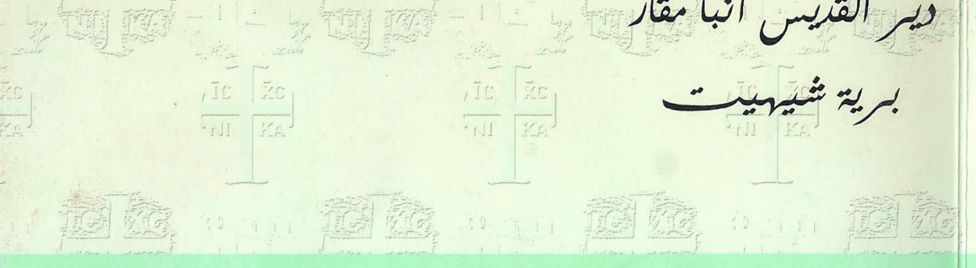
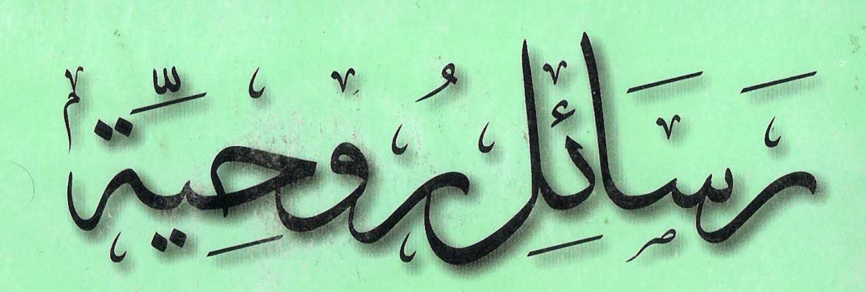
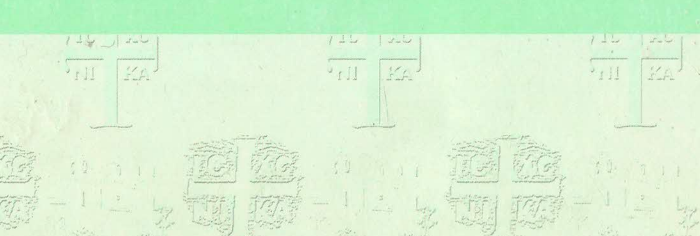


دير القديس أنبا مقار

برية شيهيت



رسائل روحية



الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

رسائل روحية

الأب متى المسكين

اسم الكتاب: رسائل روحية.
(هذه الرسائل كُتبت أصلاً في الفترة ما بين ١٩٨٣/١٠/١٣ إلى ١٩٨٣/١١/١٥. وقد أُعدت للنشر عام ١٩٨٤. وقد صرَّح الكاتب بنشرها بعد إلحاح.)
المؤلف: الأب متى المسكين.
الطبعة الأولي: ١٩٨٤.
الطبعات التالية: ١٩٩٢، ١٩٩٣، ١٩٩٩، ٢٠٠٤.
الطبعة السادسة: ٢٠٠٩.
مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون
ص. ب. ٢٧٨٠ - القاهرة
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٨٤/٢٨٧٦
رقم الإيداع الدولي: ISBN 977-448-015-5

يُطلب من:
دار مجلة مــــرقس
القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤
الإسكندرية: ٨ شارع جرين – محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠
أو من: مكتبة الدير
أو من خلال الموقع على الإنترنت:
www.stmacariusmonastery.org

المحتويات

٥. الله والجماعة ٣٠

٦. الله وميزان الحياة ٣٦

٧. أنا والعالم أو علاقة الداخل بالخارج ٤٢

٨. إيقاظ الوعي الروحي نحو العالم ٤٨

٩. - أنا والله - الخبرة الروحية مبدأها ومنتهاها ٥٤

١٠. العالم ومسئوليتنا العظمى ٦١

١١. أنا والروح القدس: الروح ضد الجسد، والجسد ضد الروح ٦٧

١٢. أنا والخطيئة ٧٤

١٣. أنا وغرائــزي ٨٠

١٤. أنا هو ما أعمل أنا وغرائــزي ومواهب التحويل ٨٦

١٥. سر أعماقي (دوافع السلوك) ٩٢

١٦. كيف أسمو بغرائــزي (الإنسان الجديد) ٩٧

١٧. تصحيح مفهوم الصراع ١٠٥

١٨. المصالحة ١١٣

١٩. التجلي ١١٨

سيرتنا في السموات جهادٌ وحبٌ

نعمة وبركة وسلام من الله وحب فائض من أحشاء رحمة يسوع المسيح وقوة خلاص وفداء منسكبة من الروح القدس لأرواحكم جميعاً.

كتبت إليكم من جهة شكل الحياة الرهبانية الذي يضع إسكيم ملامحها، ويعطيها زي الصلاة للوقوف أمام الله بلا همٍ، وسؤالاً بلا خوف، وتطلُّعاً في وجه الحبيب يسوع بلا خزي.

واليوم أكتب لكم في السيرة المقدسة التي تُسلِّمت إلينا - يشهد الله - حية حارة محيية. لأنه وإن كنا نبدو للآخرين وكأننا صورة باهتة لتاريخ أمجاد انمحت، ولكن يشهد الروح القدس بأنَّات لا يُنطَق بها أننا امتدادٌ حيٌ لتاريخ حيٍ، وصفحةٌ ذات رقم مسجل في كتاب يُقرأ من الكنيسة غير المنظورة بفرح ودعاء ومؤازرة من أرواح تكمَّلت في المجد تنتظر يوم لُقيانا في حضرة المسيح، الذي جمعنا من شتات مدن مصر، ليصنع بنا شهادة أمام أبيه أن صليبه لا يزال يثمر على الأرض ثمر البر بلا أي نقصان، وإن كان وسط أعنف تيارات سخط العدو الذي يقف قبالة كل واحد منا - وأنا أكثركم - مستخدماً أعداءً هم غير منظورين، ولكن أعمالهم فاقت كل مقاومة عاناها آباؤنا منذ البدء.

سيرتنا تُسجَّل في السموات:

أما سيرتنا نحن، أيها الآباء والأخوة، فيلزم جداً أن تعلموا أنها تُسجَّل في السموات يوماً بعد يوم حيث تُلغى الأيام ويسقط الزمن في

النهاية ولا يبقى في هذا السجل السماوي إلا صورة ومضات الحب والبذل والعطاء، والعرق الروحي، ودموع الاشتياق، وأنين الغربة، وتطلُّعات الوجود مع المسيح. الثواني محسوبة والدقائق والأيام والشهور والسنين، وطوبى لمن يملأ خانات الزمن بعلامة "√" ويطوي الأيام عن رضا الضمير تجاه وصايا الرب حيث تخط النعمة تحت كل أعمال وأقوال حركتنا اليوم خطاً أحمر زاهياً برَّاقاً، يراه يسوع المصلوب من أجلنا فترتاح أحشاؤه في السماء؛ لأننا - لا أقول "مختارون" - بل مولودون ومعيَّنون لاسترضاء قلب المسيح، وقد لبسنا الزيَّ الرهباني لنكون معروفين لدى الأرض والسماء بتوبتنا المتجددة، وشهادة مستجيبة لنداء الروح الذي يلحُّ على كل واحد منا أن: «توبوا وارجعوا لتُمحى خطاياكم لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب» (أع٣:١٩)!

ألستم تعلمون أنه يوجد بيننا مَنْ يستحق بالفعل والقول والسلوك المواهب المتعددة الصور ولكن لروح واحد؟ نحن مدعوون أن نصوِّر للعالم كل أوجه الروح القدس المتعددة الجمال والفائقة الحسن كصُحبة ورْد ومنها تفوح رائحة متعددة الصفات، تُقدَّم أمام الله بواسطة يسوع المسيح، والله يطلب دائماً المزيد، لذلك لا يتوانى الروح عن سكب المزيد أيضاً لكل من يفغر فاه ليمتلئ إلى كل الملء الذي يحقق صورة المسيح على الأرض.

الجهاد أمامنا لنقبل دخول الروح فينا:

إذن، فالجهاد موضوع أمامنا ليس لكي نُحدر الروح من السماء، ولكن لنقبل إلحاح دخوله حياتنا ليُشبعنا ويروينا لنفيض من ملئه. إنه جهاد إيجابي لا يزيد عن الدعاء الذي تعلمناه منذ الطفولة: "أيها الملك السمائي المعزِّي، روح الحق، الحاضر في كل مكان، مالئ الكل، كنز الصالحات ومُعطي الحياة، هلُمّ تفضل وحلّ فينا وطهرنا من كل دنس". وللمسيح نستعطف ونقول: "بصليبك أصلب أعضائي وشهواتي

لتكون أهلاً للقيامة من الأموات، وأصلب محبة العالم والعالم كله لي لكي لا يعيق دخولي إلى حضرتك". أما للآب فنقول: "أشكرك يا أبانا السمائي لأنك أحببتنا في المسيح، ولأننا أحببناك في الروح الذي وهبتَ". هذا هو ميراثنا الروحي أساس سيرتنا في السموات، إنه جهاد حي، ليس فيه رائحة مرارة بل رائحة حب تفيض، يشْتَمُّها أهلُ الخلاص فيبتهجون، و يشْتَمُّها أهل المزدرين بالروح الدائسين لدم العهد فيتسممون حقداً وعداوة.

وسيرتنا هي سيرة حب:

يا أحبائي، إن سيرتنا هي بالأساس "حب العاشقين"، وكل مزيد من الحب يقابله مزيد من القُرب بل واللُقيا. أليس هذا هو قول المسيح نفسه: «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي»؟ (يو١٤:٢١) هل طلب المسيح من أخصائه غير الحب؟ من جهة هذا صرخ بولس الرسول أن المحبة هي تكميل الناموس، فمن يُعوزه شيء من الجهاد فليعوِّضْه بالحب لأنه أكثر من كفاية!

والحب، يا أحبائي، شبكة لا يستطيع الروح القدس أن يُسقِط فيها أسراه إلا إذا كانوا خاضعين هادئين مُذعنين لصوته وإيحاءاته، حيث يدفعهم ويجرُّهم إلى حضنه ويسيِّج حولهم حتى لا ينفلتوا. إذن فإن كانت هناك مشورة تصلح للدخول في شبكة نعمة الروح فهي: إهدأوا ولا تتحركوا بغير إيحاءاته، واخضعوا واستسلموا لمشوراته؛ تجدوا أنفسهم وقد حُبستم في فخ انجذابه المريح، فتموت الدنيا من ناظريكم وتموت كل شهواتها، ولا يبقى إلا لذةُ الحب كجراحٍ، تنزف عذوبة، وقيودٌ أقوى من الحديد تربطنا بالسماء موطننا الذيْ لا بد أن ننتهي إليه!

ثم ألا ترون معي أنها حياة أخرى نبدأ نحياها في هذا الدهر حيث لا يحتوينا شيء من هذا العالم؟ - هوذا: «رئيس العالم يأتي وليس له فيَّ

شيء» (يو١٤:٣٠)؟ حيث يمتلكنا الله كلياً ونملكه نحن جزئياً؟ ومعه لا يعوزنا شيء.

وسنظل معرَّضين للقلق والهمِّ المريع والحيرة والارتباك الشديد ونفور من الحياة، إلى أن نبلغ هذا الحصن المريح، حيث يد المسيح تمتد لكي تمسح دموع أحزاننا وتغرس فينا دموع العزاء والفرح، وعوض أزمنة أكلها الجراد تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها (ملاخي٤:٢)، لنمتلئ من غِنَى الروح وخصب الحياة.

غنى الروح حاضر في عمق الجهاد مع الواقع:

والصدق كل الصدق، أقول في ضعفي، أن هذا لا نناله بالعزلة والاعتزال بقدر ما هو متوفر وحاضر في عمق الصراع مع واقع الحياة، لقد باشرتُ الاثنين وعشت الحياتين واغترفت من الاثنين، فكانت كفة الصراع مع الدنيا أوفر غنىً وأخصب ثماراً للمسيح؛ مع أني في الاثنين كنت ضعيفاً ذليلاً متذللاً. ولقد أعلَمني الله ذلك عن يقين، أن الملء في مواجهة العالم أكثر صحة وأماناً، لأنه ليس من اللائق أن نفلت من جذب العالم بتحطيم أسس العالم، بل بغلبتها، وغلبتِه، وتجاوز مجاذبتها: "ثقوا أنا قد غلبت العالم" (يو١٦:٣٣)، قالها يسوع وهو وسط سوق هذا العالم! ولكنه ينبه ذهننا أنه كان يذهب إلى الجبال ويبيت ويمضي الليل كله في الصلاة. فما أحلى جبال الرب التي نعيش فيها ونبيت ونمضي الليل كله في الصلاة، ونقوم لنجعل العمل قرين الصلاة وتزكية لها أمام الله والناس.

الحياة الروحية تقوم على أساس المصالحة بين المتضادات:

ولو فحصتم الإنجيل والآباء، لوجدتم أن الحياة الروحية الكاملة المتكاملة تقوم على أساس مصالحة المنظور بغير المنظور، الأبدي بالزائل، والخلود بالزمن، وذلك من خلال وحدة العمل والصلاة التي

يختمها الله بخاتم الحب من خلال الصليب! وكلما نجحنا في هذه المصالحة العظمى بين العالم والأبدية صرنا حتماً وبالضرورة أقرب إلى الله والأبدية، فالله لن يُرى في العالم إلا من خلال تجاربنا في الحياة "ليروا أعمالكم الصالحة فيمجدوا أباكم الذي في السموات" (مت٥:١٦)! نعم "فليضيء نوركم هكذا أمام الناس"! وعليكم أن تفهموا أن هذا النور "فليضيء نوركم" هو حصيلة تغيير في صميم الطبيعة البشرية عندما تتسربل بالروح القدس فتتجلى. إذن، هو نور تجلي الطبيعة البشرية في حضرة الله؛ لأننا حقاً وبلا زيادة في القول مدعوون للشهادة من خلال هذا التغيير الجذري الحاصل لطبيعتنا من جراء دخولها في مجال النعمة والروح القدس، لقد قدمه لنا الرب يسوع جهاراً في جسده بل في ثوبه على جبل التجلي ليعطينا إياه بالتمام، لأن ليس شيء ما مما صنعه يسوع غريباً عنا، بل وهب لنا كل ما قاله وما عمله وما تحصَّل عليه.

أما بالنسبة لنا فهو تغيير في الأخلاق، في السلوك، في التصرف إزاء العالم والناس، تغيير ينطق بالمصدر الآتي منه: من الله في أعماق النفس. وهو لا ينضح نوراً مرئياً، بل إحساساً طاغياً بحضرة الله وعمله لدى النفس ولدى الآخرين، حيث يحس الإنسان أنه لم يعد وحده في الحياة، بل يطغى عليه شعور يقيني أنه يعيش مع آخر يبدو في البداية وكأنه آخر وحسب، وقليلاً قليلاً يتبين في وضوح الرؤيا أنه هو الرب في ملء حضوره الشخصي، وحينئذ يذوب الإنسان ذوباناً أمام هذه الحقيقة فيصرخ مع بولس الرسول: "أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ" (غل٢:٢٠).

❖❖❖

وفي الختام أبعث إليكم بأرقِّ مشاعر المحبة، سائلاً المسيح من أجل جميعكم أن تذوقوا الرب وكم هو طيب وصالح.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

رسالة رقم ٢

الله في العمل اليومي

نعمة وبركة وسلام من الله أبينا، الذي تبنَّانا بالحق في ابنه يسوع المسيح، برباط الحب في الروح القدس الذي تكلم في قلوبنا، فجذبها الله، فجرينا وراءه ولا نعلم إلى أين نذهب أو ماذا سيكون المصير، ولكننا سلَّمنا فصرنا نُحمل في بحر هذا العالم الذي لا يقرُّ له قرار.

إذ وجدت مسرة في الكتابة إليكم، أحسست أن شوقكم ودُعاكم يحركني لأكتب إليكم لأنفِّث عن طاقة الحب والحنين إليكم، لأني رأيت وكأن آذاناً كثيرة تحيط بفمي، فعلمت أن كلمتي سُمعت بقبول، فانطلق القلم يكتب وكأنه عن إملاء.

الله حاضر في حياة الإنسان العملية:

أكتب إليكم عن الله كما نحسه في العمل، بحسب مسرة حضوره، منجذباً إلى القلوب التي تدعوه وهي تتحرك وتسير وتعمل وتجتهد في عَرَقِ الرضا والشكر، حيث يتراءى الله بصورة سرية على هيئات مختلفة تبدو وكأنها رضا ومساهمة غير مقصودة، مع أنه هو هو حضور الرب على هيئة نِعَمِ عملٍ ومواهب مقتدرة تختفي وراء قدرة الإنسان الهزيلة وتفكيره المكدود العاجز. إنه الرب الذي يعمل بواسطة أيدينا وأفكارنا.

أما أساس هذا الحق فهو أنه بالإيمان صارت هناك وحدة أو اتحاد يربطنا سراً بالرب، هذا الرباط هو النافذ إلى الفكر والإرادة والعمل، والتي تبدو خطأً أنها مهارة، مع أنها هي هي الحضور السري الفعَّال على مستوى بسيط. فالوحدة الكائنة بالإيمان مع الرب: "يثبت فيَّ وأنا فيه" (يو٦:٥٦)، هذا الثبوت المتبادل لا ينحبس في حدود الروح بصفة مجهولة بل يبرز بقوة إلى حيز العمل والقول والتفكير، فالرب بالإيمان والصلاة والمحبة لا يبقى فينا ساكناً أبداً، بل حياً متحركاً.

والأمر الذي أود أن أوضحه لكم بيقين أنه لا توجد للإنسان الروحي المؤمن بيسوع حياتان: حياة روحية مظهرها الصلاة والتأمل...إلخ، وحياة مظهرها العمل والحركة وأداء المهام اليومية المادية؛ بل هي حياة واحدة فقط لا ترتبط بالمظاهر، بل تكوِّن جوهر كل حركة وفكر وكلمة، ويعيش الإنسان في محتواها كلياً "به نحيا ونتحرك ونوجد" (أع١٧:٢٨)، وهو "عن كل واحد منا ليس بعيداً" (أع١٧:٢٧)، بل وقريب ومتداخل إلى حد الإتحاد الإرادي غير المنظور: "الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا" (في٢:١٣)، ولذلك يفرح العامل بعمله وينجح.

انحراف أولاد الله يُحزن روح الله:

ولكن مرعبٌ أقصى الرعب أن يريد الإنسان شراً أو يعمل إثماً، متعدياً عن إرادة؛ هنا يُهان روح الله فينا فيضطر إلى إخلاء مؤقت لمسكنه في القلب، فيبقى الإنسان وحيداً مهجوراً، وتنطفئ الرؤيا، وتتوقف البصيرة، فيعمل الإنسان كأعمى يسير في ظلامه الدامس. ولهذا فإن انحراف أولاد الله ليس فقط هو سر الفشل والخسارة وفساد العمل، بل يتخطى ذلك إلى إحزان روح الله وجرحه وأهانته، ولا عودة إلى حركة الشركة إلا بعد توبة صادقة من قلب يحترق ندماً لاسترضاء روح الله الوديع، فيعود الله يملأ أركان القلب، وينفرش على كل مُسطَّح الإرادة بعد أن يشفي ما فسد، وكأنه بعمل جراحي يعزل الأجزاء التي امتلكها الشيطان وسوَّدها وأنتنها وكأنها أجزاء مسرطَنة.

ثم أعود وأنبه أن حضور الله قائم بصورة فعَّالة في حياة الإنسان العملية أضعافاً مضاعفة لوجوده في حياة التأمل الفكرية، لأن مسرة الله أن يُختبر بالفعل ويتراءى بالعمل!

صحيح أن الله يتحتم أن يُدرَك أولاً بالعقل بالرؤيا العقلية التي تسمى في اللغة العربية بـ "الحَدْس" أي إلهام العقل المباشر، لأن الإحساس العقلي منوط به إدراك الخلود والأبدية والتعرف على الله الأبدي، ومن ثم إدراك المسيح وكل صفاته وأعماله التي هي أصلاً كقول المسيح "من عند أبي" (يو١٠:٣٢)، مشيراً بذلك إلى كونها أبدية خالدة وليست من هذا الدهر "الحياة الأبدية كانت عند الآب وأُظهرت لنا" (١يو١:٢). وبالرغم من كون هذه الحياة سرِّية بهذا المقدار وموقوفة على محيط غير المنظور، إلا أن يوحنا يشهد وعن يقين أنهم سمعوه وشاهدوه ولمسَتْه أيديهم، ليس كما يسمع الإنسان ويشاهد ويلمس الأمور المادية بحواس مادية؛ بل إن هذا السمع وهذه المشاهدة وهذا اللمس يتم عن طريق حدوث شركة، شركة وجود، فإدراك فرؤيا فملامسة، شركة مع غير المنظور هذا. هنا الدهشة والعجب والانذهال التي تصيب الإنسان بقشعريرة ورهبة، لأن المسألة فاقت حد إدراك ورؤية وملامسة آخر، ولكنها شركة، والشركة تعبير عن إتحاد بغير المنظور هذا وبغير المشاهَد هذا أصلاً ولا ملموس.

قدرة الإنسان على نقل غير المنظور إلى حيز العمل:

من هنا جاءت القدرة العجيبة التي حازها الإنسان بالإيمان بالرب، قدرة نقل غير المنظور ولا المنطوق به ولا الملموس إلى حيز العمل والتعبير والإعلان الفعلي في صميم الحياة: "الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به (عن طريق الكلمة والعمل والسلوك) لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا، وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح... ليكون

فرحكم كاملاً" (١يو١:٣،٤).

ثم إن العمل والسلوك أصبحا يشهدان على هذه الشركة، شركة الله معنا، حتى إذا انحرف العمل والسلوك ناحية الكذب أو الشر أو الباطل، أيًّا كان، توقفت وبطلت هذه الشركة، واختفى نور الله من العقل والقلب: "إن الله نور وليس فيه ظلمة البتة، إن قلنا إن لنا شركة معه وسلكنا في الظلمة **نكذب ولسنا نعمل الحق**" (١يو١:٥،٦).

الله يظهر من خلال العمل:

إذن يظهر لنا بكل وضوح أن الله والعمل حقيقة واحدة؛ فالعمل إمَّا يكشف عن وجود الله فينا أو يكشف عن غيابه تماماً. ومن هنا يظهر سر الصبر في العمل، بل سر الاحتمال للمصاعب الذي يفوق احتمال الإنسان العادي، بل سر تجلِّي العمل الذي يُسمى بالنجاح، معلناً عن العنصر الإلهي الكامن فيه والذي يهدف في النهاية وبصورة شاملة وكلية إلى تجديد العالم من خلال العمل، والشهادة للرب من وسط موات المادة وجمودها، فما أعجب يد الإنسان عندما يحركها الله! وما أعجب عقل الإنسان عندما يغشاه نور الله!

إن الحقيقة التي تختبئ وراء هذه الحقيقة هي أن الله موجود حقاً في العالم، إنما يسكن عقل الإنسان وقلبه، ويتحرك من خلال يد الإنسان، وهذا كفيلٌ بأن يفعمنا بسلام يفوق العقل، سلام ثابت مستقر مفرح مهما كانت الظروف والحوادث، ومهما بلغ شغب العدو حتى ولو قلب لنا العمل رأساً على عقب، فالله كائن في عقل الإنسان وليس في العمل، وهذا بحد ذاته كفيل بتصحيح الأوضاع مهما بلغت المقاومة.

حضور الله يشيع فينا الأمان:

من هنا نستطيع بكل ثقة الإيمان ويقين الرجاء أن نقول إن كل عمل يقع في أيدينا مؤمَّن عليه بضمان حضور الله! وهذا يشيع فينا بالتالي إحساساً عميقاً بالأمان! فالعالم متغيِّر، وهذا يقلقنا؛ ولكن الله ثابت، وثبوت الله كفيل بأن يجعل تغيُّر العالم يصير فينا ولنا إلى أفضل؛ وهكذا تصبح الأعمال بالرغم من كل ما فيها من تغييرات متعبة ومقلقة ومخسرة تنتهي إلى بناء الإنسان بسبب العنصر الإلهي الذي يحركها نحو هدف صالح للإنسان الذي استحسن أن يُبقي الله في معرفته! وهكذا يذهل العقل ويندهش جداً عندما يدرك أن الأبدية قائمة في وضعٍ سرّي داخل العالم ومنبثّة في كل عمل يعمله الإنسان، عندما يكونُ متوكلاً على الله!

التواكل، وكيف يرفع الإنسان من شركة الرب:

على أنه في بداية اختبار الشركة مع الله من خلال العمل حيث فيه يحس الإنسان، كما سبق وقلت لكم، كأن آخراً يعمل معه ويفكر معه ويصمم معه، تكون سعادة الإنسان آنئذ لا توصف، إذ يتبين بوضوح بعد حين أنه "هو الرب". ولكن العجب العجاب أن هذا الاختبار لا يدوم بالرغم من حلاوته التي تفوق الوصف والتي تبلغ شعوره اليقيني أن الرب يحتضن الإنسان حتى في نومه، أقول إن هذا لا يدوم، لأنه اختبار طفولي جاء سنداً لعجز الإنسان عن مواجهة المسئوليات والصعاب، ويتغير الاختبار دون أن يحس الإنسان، إذ يبدأ الإنسان يشعر مرة أخرى أنه وحده وحيد متغرب، حيث يصعب عليه الأمر، ويبدأ يدين نفسه ويرثي حاله. ولكن الحقيقة المذهلة بالأكثر أن الذي رُفع من هذه الشركة ليس هو الرب بل الإنسان الذي بدأ يثق بنفسه

ويصير اعتماده على المسيح كاذباً عندما لا يكون الإيمان حاضراً بثقة، وهذا يأتي بسبب التواكل، لذلك يلزم أن يكون الاعتماد = الإيمان.

فالذي يبقى من الشركة هو الرب نفسه ليعمل مع ضعف الإنسان لا مع قوته. فمن جهة، يحس الإنسان بمنتهى ضعفه مُحجِماً عن اقتحام الأعمال كالأول، ولكن يسوقه الرب ليشاء ويعمل رغماً عنه، وإذ ينجح العمل يتيقن الإنسان، وعن برهان النتائج، أن الله أصبح هو العامل فينا أن نشاء وأن نعمل!

يا لعظمة القدير الذي ارتأى أن يحتضن ضعف الإنسان ليُظهر قوته فيه!

❖❖❖

وفي الختام أهدي جميعكم محبتي الحقيقية التي لا يملكها إلا الله وأنتم، فليس لي عمل أعمله إلا أنتم في حضرة القدير.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

الله وأنا

الآبـاء والأخـوة المحبوبـون في وحـدة القلـب والروح، ليكثر لكم السلام في الرب، ولتمتلئوا إلى كل ملء الله، حسب الوعد المبارك الذي هو سرّ لا يُدرك ولا يُفهم ولا يُفحص.

كتبت إليكم عن حضور الله في العمل حضوراً سرياً يفوق كل ما يمكن أن يستعلنه العقل بالرؤيا الخاطفة (الحدْس) أو حتى بالتأمل الفاحص؛ فالله في الحضرة الأولى يدخل دائرة الحياة الحسّية الواقعية في سرّ الشركة الفائق الاتضاع مع الرب بالروح، أما في الثانية فلا يتعدى المشاهدة.

المرحلة الأولى: الله يبدو كآخر بالنسبة للإنسان:

واليوم أترك قلمي كما في يدٍ سرّية ليكتبَ عن سر الشركة هذه: "الله وأنا"، إنما في مرحلة تجاوز الإحساس بأن الله يبدو كآخر بالنسبة لي، وهي المرحلة الأولى في بداية تنازل الله للدخول في شركة مع النفس الحارة المتطلعة نحو حياة البر والتقوى، حيث يظن الإنسان (في هذه المرحلة الأولى) أن الله منفصل عنه ولكنه يأتي من حين لآخر للعزاء والمساعدة - هذه هي المرحلة الأولى الممهِّدة لحياة الشركة.

المرحلة الثانية: الذات تبدو كأنها وحيدة:

ولكن هذه المرحلة لا تدوم، إذ يدخل الإنسان الأمين في حبه وسَعْيه إلى المرحلة الثانية حينما يختفي الله وراء الذات وكأنها وحيدة، فتضطرب أولاً ولكن تُذهل حينما تدرك أن الروح استقر داخلياً وتبنّى

الذات البشرية ليتكلم ويعمل بها وفيها: «لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم.» (مت١٠:٢٠).

ولكن الإنسان يحس بالله قريباً جداً:

ومن علامات هذه المرحلة الهامة والعظيمة حقاً والبسيطة للغاية أن الإنسان يُحس بالله قريباً جداً، قُرباً يتلاشى منه الإحساس بالذات أحياناً، وكأن الإنسان مُبتَلعٌ أو أن الروح القدس قد احتل كل مراكز نفسه وروحه وجسده، ولم تعُدْ فيه نقطة واحدة لا يمتلكها. هكذا يحلُّ الله! فحلول الله الكامل هو في الحقيقة احتلال كامل، وهذه أعلى مراحل الشركة وأكثرها صحة وفاعلية وأماناً: «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة» (في٢:١٣). وهكذا، وهنا لا يعود الله آخراً بالنسبة للإنسان، بل الكل في الكل، حسب تأكيد وعد الوحي الإلهي على فم بولس الرسول: «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل٢:٢٠). هنا يشرح القديس بولس كيف وصل إلى درجةٍ ينفي فيها وجود ذاته، إذ لم يعُدْ يحس بها بسبب احتلال المسيح لكل كيانه الفكري والروحي؛ ولم يعُد اختبار القديس بولس فريداً ولا حِكْراً عليه، بل إن الروح وضعه نموذجاً ومثالاً لعمله المزمع أن يكمِّله في كل أتقياء الله على مدى كل العصور، إذ صارت هذه الخبرة الروحية عامة وشاملة للقديسين الذين تقرَّبوا إلى الله من كل القلب وأحبوه من كل النفس وبكل القدرة.

هذه الشركة تحتم في هذه المرحلة الخضوع لمشيئة الروح، فتستجيب النفس تلقائياً وبسهولة لكل مشورات الرب. وكلُّ استجابة سريعة ومذعنة يقابلها دائماً راحةٌ لا توصف، مصدرها راحة الروح نفسه في أحشاء الإنسان، وهذه من علامات صحة الشركة وفاعليتها؛ إذ إن كل حركةٍ للروح يقابلها حركةٌ مماثلة للذات، وكل فعل يقابله ردُّ فعل.

وبالعكس، فكل سؤال يقابله جواب لدى الروح بلا عناء، إما على المستوى المسموع داخلياً، أو على مستوى الفعل، بدرجة تدهش العقل: «اسألوا تُعطَوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم» (مت٧:٦). فالذي نسأله ونطلب منه ونقرع بابه ليس عنا ببعيد، فهو داخلنا ويملك كل ما فينا.

إذن، فالسؤال والطلب والإلحاح عند الذين حصلوا على شركة الروح لا يتم خارجاً، بل هو تطلُّعٌ داخلي وأنين يسمعه الروح بلا كلام ويستجيب خُلْواً من زمن؛ وكأن أذن الله تحيط بفم الإنسان، واستجابته آنِيَّةٌ لا تحتاج إلى فحص. ما أعجب الله وما أعجب أعماله في بني الإنسان!

والشركة بهذه القدر عجيبة وفائقة الراحة للإنسان، يمكن أن يواجه بها زعازع الحياة دون أن يهتز، بل وكل قِيَم الدنيا تهتز أمامه وهو قائم كمن هو في حضن النعمة المريح.

اختبار الآلام والأمجاد:

ولكن الشركة لا تقف عند حد الاكتفاء بعطايا الرب واستجابته لكل توسلاتٍ يقدمها الإنسان بثقة، غير مرتاب، وإنما تمتد الشركة لتحمل الإنسان بالروح وتضعه في كل المواضع التي جازها الرب من أجل تكميل خلاصنا والفداء. فيرى الإنسان، من خلال شركته بالروح مع الرب، يرى نفسه على درب الصليب وعلى الصليب وفي القبر والقيامة، يرى كل الآلام والأمجاد التي بعدها. إنها شركة كاملة تستقطب الزمن وكل الحوادث، لتضع الإنسان أخيراً في عمق شوق المجيء المنتظر بفارغ الصبر: «مع المسيح صُلبتُ...»، «أقامنا معه»، «أجلسنا معه في السماويات» (غل٢:٢٠، أف٢:٦). وكل موضع من مواضع المسيح تغشاه

النفس بيقين شديد كحقيقة لا تحتاج إلى برهان حسِّي، وذلك بسبب تأكيد الشركة وقيام الرب داخل النفس بالروح الذي ينقل للنفس كل ما للرب: «الروح يأخذ مما لي ويخبركم.» (يو١٦:١٥).

هنا وبحسب سر الشركة يكون كل اختبار تتذوقه النفس، سابقاً للفكر فائقاً على الفحص - أي تَذوق النفس أولاً، وبعد ذلك تفهم! «أجاب يسوع وقال له لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع ولكنك ستفهم فيما بعد» (يو١٣:٧)!

وهكذا دائماً أبداً يكون حال الخبرة الروحية: طاعة مطلقة - رؤيا باهرة - وأخيراً تفسير الروح؛ وكأن حال الروح القدس تجاه النفس دائماً يقول: أُطلبوا الرب فهو قريب، ولا تسألوا أبداً كيف يكون؟ فالروح يهبُّ حيث يشاء - ومشيئته دائماً ملءُ القلوب - ولكن دون أن يعلم الإنسان كيف يكون ومن أين يأتي (من عند الآب) ولا أين يذهب (إلى المختارين بالروح). فإن أعذب وأجمل شيء لدى مشيئة الروح القدس هو أن تذوق وتنظرَ كَمْ أن الرب طيب!

الروح القدس يلحُّ علينا أن نقبل سرَّ الصليب:

أما مشتهى الروح القدس فهو أن نبادل الرب حباً بحب استجابةً لما أكمله على الصليب من أجلنا، لأن المأمورية العظمى المنوط بها الروح القدس هي: «ذاك (أي الروح القدس) يمجدني» (يو١٦:١٤). ووسيلته الوحيدة: «إنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يو١٦:١٥). وهكذا فلكي يمجِّد الروحُ القدسُ المسيحَ، فإنه يتعقبنا ويلح علينا أن نقبل استعلان سر الصليب والقيامة، سر الحب الإلهي في الفداء والتبرير: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣:١٦).

والروح القدس هو المنوط بنقل محبة الله الآب، باستعلان صليب المسيح الذي عليه أكمل المسيح رغبة الآب لتوصيل حبه مجاناً للخطاة. هذا هو مجد المسيح وهو هو بعينه عمل الروح القدس، وهذا لا يتم إلا من خلال شركة سرية مع الروح، **يُستعلن خلالها كل ما عمل المسيح**، استعلانَ الخبرة المحسوسة بالروح ليقين الإدراك ثم الشهادة! «**ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم**» (أف٣:١٧)، «**لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى**» (كو٣:١٦).

كل هذه المفاعيل الحية المحيية إذا حُسبت في دائرة التأمل ضعفت وفقدت حجمها الممتد في الروح، أما إذا نزلت لمستوى التعامل مع الآخرين بأي نوع، تجلَّت ونمت. فشركة الروح مع المسيح موجَّهة دائماً أبداً نحو الآخرين «**ومن يسمع فلْيقلْ تعال**» (رؤ٢٢:١٧). هذه وظيفة "الروح والعروس"، ولكن كلمة "يسمع" تأتي أولاً!

❖❖❖

وختاماً أبعث إليكم بأرقّ مشاعر المحبة أنتم الذين كنتم دائماً على مستوى السمع والنداء تطلبون وجه الرب.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

الله في الداخل وفي الخارج

سلام الله الذي يفوق كل عقل لكم جميعاً مع محبة المسيح وعزاء الروح القدس.

لقد كلمتُكم عن "الله والعمل" و"الله وأنا"، لأن هذه أول خبرة أو اختبار روحي عملي نتعرف به على الله بالروح. إذ يستحيل، أيها الآباء الأعزاء، معرفة الله معرفة تلامُس، أي معرفة شخص لشخص، إلاَّ في الداخل، داخل الإنسان من خلال التعامل مع العالم والناس، من خلال الحوادث، العادي منها والمُعاكِس معاً. وهذه المعرفة تؤهِّل لمعرفة الله في ذاته تجاه العالم الخارجي، فيما يخص وجوده هو وعمله هو، دون اعتبار لوجودنا الشخصي.

هذه المعرفة الخاصة بالله التي لا تتصل اتصالاً مباشراً بشخصنا، تبدو لأول وهلة أنها لا تخصُّنا في شيء، وبالتالي لا حاجة بها لإنسان عملي يكدُّ ويكدح ويهتم بخلاص نفسه وحسب.

ولكن العجب أن الله لا يمكن أن يُؤخذ أخذاً أنانياً، ويستحيل أن يُعرَف معرفة محدودة في حدود اختبارات تخصنا وحسب، فالله وحْدة واحدة لا يمكن أن تتجزأ، يعلن نفسه إعلاناً كلياً، ويُستعلن كإله للعالم وكل بشر، إله كل الأجيال وكل "الوجود بحركته" ومحتواه.

ولكن العين الكليلة والذات الضيقة في ذاتها تحاول في قصور وفي جهل وفي غباء أن تكتفي فيه بما يلزمها وحسب، أما الله فلا يرتاح، والروح لا يهنأ ولا يهدأ حتى يوسِّع النفس ويَفْرد إدراكها بصبر وطول أناة، لتدرك الله في اتساعه وكلِّيته أنه إله العالم كله وكل الناس وكل زمان ومكان.

النوع الأول لمعرفة الله: تكشف فقط صورة الذات الضيقة:

فالمعرفة الأولى الضيقة لا تكشف حقيقة الله الممتدة في الكون والناس، قرينة الحب والعطاء اللانهائي، بل هي تكشف فقط صورة الذات، أي تكشف صورة صاحبها على خلفيَّة الله وكأن الله على قدر مُسطَّح الذات، وكأن حدوده هي حدود أطماع الذات وآمالها. لهذا فإن هؤلاء الأشخاص الروحيين الضيقين المتضيقين في أنفسهم والمحبوسين في أنانيتهم، يعطون صورة كاذبة ممسوخة عن الله تُضعِف وجوده وتُسيء إلى كماله وجماله وعموميته المتسعة لكل العالم ولكل ذي جسد يتنفس ويدبُّ على الأرض. هذا في الحقيقة انحصار رديء وسيئ لمعرفة الله داخل الذات **وحسب**، على قدر قياسها الضيق الآدمي، بل إن هذا الإدراك لا يمتُّ إلى اختبار الله بالروح والحق داخل الإنسان.

النوع الثاني: معرفة الله الحقيقية هي استعلان ذاته في الآخرين والعالم:

ولكن اختبار الله داخل الإنسان اختباراً صحيحاً سوياً، لا ينتهي عند مطالب الذات **وحسب** على وجه الإطلاق؛ فالله يمتد في الحال وبآن واحد: من استعلان ذاته للنفس إلى استعلان ذاته في الآخرين بقدر متساو، ثم إلى استعلان وجوده في جميع أركان العالم كأساس ومنبع ومصبٍ لكل الوجود، بما فيها نفس الإنسان هذا.

فالاختبار الحي الصحيح لله داخل النفس يكشف عظمة الله خارجها في اللامحدود واللانهائي. فيا لفرحة النفس! ويا لبهجة الذات البشرية! عندما تتلمَّس وتتيقن بأن الذي فيها هو الروح الذي ارتضى باتضاع مذهل أن يُحتوَى فيها، وهو هو اللانهائي اللامحدود الأزلي والأبدي. هنا ينتاب النفسَ شعورٌ أنه هو هو قد امتد مع الروح بصورة جزئية مبهمة نوعاً ما في هذا الاتساع خارجها، وكأن النفس خرجت من وراء

حدودها وجدرانها لتسبِّح مع الروح في هذا اللانهائي غير المدرَك، بطريقة تُذهِل الروح، فتفقد إحساسها بذاتها، ولا تدرك ذاتها حتى بعد هذه الرحلة المجهدة - التي لا تزيد عن ثوان - تعود إلى بيتها العتيق أي الجسد، ولكن في يقين بأنها قد امتلكتْ، كعربون، منزلاً خارجاً عنها، منزلاً أفضل، وأوسعَ من الدنيا بلا جدران.

اللسان هنا يبدأ يلهج بالأبدية السعيدة ويسبِّح اللانهائي غير المنظور، يُسبِّح مسيحَ العالمِ كله ومسيح كلِّ ذي جسد، مسيحَ الأزمنة والأبدية معاً؛ ويسبِّح باسم المسيح الذي أهَّل الإنسان أن يتجاوز حدود نفسه. فالشركة التي سبق وأن تكلمتُ عنها، شركة الإنسان مع المسيح بالروح، هي وإن كانت ذات فعل وفاعلية في الحاضر المؤلم والوجود المادي المنحصر في العوز والألم، إلا أنها هي هي في نفس الوقت شركة في الحق الأبدي غير المدرَك، الذي يتجاوز حدود الذات وهموم هذا الدهر.

علامات إدراكنا للمسيح، إدراك الشركة المتسعة الممتدة:

أما إدراكنا للمسيح إدراكاً داخلياً صحيحاً سويّاً، أي الإدراك الذي يؤهِّلنا بالفعل إلى الشركة التي تمتد بنا عَبْر المسيح إلى خارج حدود الذات، إلى مجده اللانهائي في الأبدية السعيدة، فإن لهذا الإدراك علامات:

١- إحساسنا بوجود المسيح بالحق والصدق:

هذه العلامات تبدأ عندما نحس ونتيقن أن المسيح يتقبل حبنا ويردُّه ويردُّ عليه حبّاً بحب، بإحساس يلمس فيه الإنسان وجود الرب بالحق والصدق وليس بالوهم «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي» (يو٢١:١٤). هذه هي قمة اختبار وجود المسيح داخل النفس «ليحل

المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف٣:١٧). «إن سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل وأتعشى معه وهو معي» (رؤ٣:٢٠). وهذا الاختبار الصادق هو الذي يمتد بنا خارج أنفسنا لنتعرف على المسيح في الآخرين وفي العالم، **وننفعل له انفعالاً بمسيح الداخل** تماماً: «**تحب الرب إلهك** من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك **وقريبك مثل نفسك.**» (لو١٠:٢٧).

٢- إحساسنا بالمسيح قوة تُحركنا لمجد الله:

وفي اختبار المسيح الداخلي نحسُّه قوة تتحرك وتحرِّك وتدفع للعمل والبذل بلا حدٍّ، وبلا توقُّفٍ. هذه القوة التي تتحرك وتحرِّك فينا، هي هي التي تتحرك وتحرك الكون بنفس البساطة والسهولة التي تتحرك وتحرك بها كل إرادتنا ومشيئتنا وكل ملكات القلب والجسد والروح! إنها قوة بسيطة غاية البساطة، ولكن غير منقسمة، تغطِّي الكون الذي أوجدته، وتحرِّكه لحساب مجد الله، تماماً كما تحرك قلوبنا لنلهج بمجد الله، مدفوعين بقوة تسيطر على قلوبنا وإرادتنا. هكذا الله في العالم يعمل كما يعمل داخلنا بسرٍّ فائق، نحسه فنبارك العليَّ القادر المقتدر، ساجدين في هيبة وفي رهبة وفي خضوع الحب الذي لا يُعبَّر عنه.

٣- وتُحرك العالم كله:

نعم إنه وجود واحد لله بالروح في داخل الإنسان وخارجه، في الكون كله وفي كل ذي نفس وجسد، إنه الوجود الواحد، الواجب أن يُحسَّ داخل النفوس الطيبة التي تحبه بالحق، في داخلها كما في خارجها، لينال الرب ملء مجده إزاء ملء حضوره في الداخل والخارج، خصوصاً وأنه حضور صالح وضابط ومُريح ومُفرح. فهلّلي له أيتها النفس العاشقة مسكن القدوس! وهلّل أيها الكون بلسان كل النفوس الأمينة المحبَّة! «أنا هو نور العالم» (يو٨:١٢) «فليضيء نوركم هكذا قدام الناس لكي

يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات» (خارج النفس) (مت٥:١٦).

وهكذا سيظل دائماً أبداً اختبارُ الإحساس بالمسيح داخل القلب هو أساسَ الإيمان بوجود الله وإدراك سر الخلق وسر التدبير الإلهي لحظة الخلاص العظمى، عَبْر الدهور، لتجديد وجه العالم وإعداد شعب مستعد لاستقبال المسيح عريس البشرية الذي يعدُّ نفسه للمجيء في ملء مجده ومجد الآب، لاستعلان نهاية الدهور وبدء حكم ملكوت الله.

الاكتفاء بمعرفة المسيح لمنفعة النفس فقط لا يمجد المسيح:

ولتعلموا أيها الأحباء المجاهدون والمختارون للُقيا وجه الحبيب كدعوة الله لكم: «قُلتَ اطلبوا وجهي، وجهك يارب أطلب» (مز٢٧:٨)؛ نعم اعلموا أن محاولة الاكتفاء بمعرفة المسيح لمنفعة النفس وحسب، بروح الانحصار ومجافاة الآخرين والتنصُّل من حمل هموم وأنين العالم، إنما هي كمن يهرب من تحمُّل تبعات خطايا الناس. هذه المعرفة وهذا الانحصار في أعواز الذات وحسب لا يمجد المسيح أبداً وهو قليل المنفعة جداً: «احملوا بعضكم أثقال بعض وهكذا تمِّموا "ناموس المسيح"»! (غل٦:٢) نعم سنشهد لك يارب بالقليل الذي أخذناه، ليزداد لنا، وسنحمل أنين وخطايا الناس، لتحملنا أيدي ملائكتك.

❖❖❖

وفي الختام أبعث إليكم حبي مع أنيني، فأنتم عزائي وسلواني، وفيكم تستريح أحشائي في المسيح الذي صرتُ له عبداً مملوكاً، وفي الروح الذي لا زلت أجري وراءه لاهثاً لعلي أناله فلا يفلت مني.

صلوا من أجلي.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

الله والجماعة

الإنسان الروحي يعطي دائماً.

هذه سمة أساسية: «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ» (أع٢٠:٣٥). أما السر العملي للإجابة على السؤال عن سر هذه الحقيقة أو المعادلة الروحية، فهو أمران:

الأول: لأن حلول الروح الله هو بلا حدود دائماً، كصفة أساسية، لذلك يكون الإنسان في حالة فيض دائم بسبب هذه الصفة الإلهية التي تلازم حلوله.

الثاني: لأن الإنسان لا يحتمل أن يحبس عمل الله، كما لا تحتمل اليد أن تقبض على جمرة نار. فالفرح مع الانذهال، مع الشبع الشديد، مع إحساس بالانطلاق إلى الخارج، يجعل عطية الله ومسرته الشديدة تنزعان بشدة إلى الامتداد.

عمل النعمة في الإنسان: نقل "الخبرة" إلى "بشارة":

وهذه هي عوامل البشارة التي تقوم على نقل "الخبرة الروحية" إلى "بشارة مفرحة":

«إذهب إلى بيتك وإلى أهلك وأخبرهم كم صنع الرب بك ورحمك» (مر٥:١٩)، وفي موضع آخر لما أوصاه الرب أن لا يذيع عمل نعمة الله فيه لم يطِقْ؛ وارتأى عصيان رجاء المسيح له: «أُنظرْ لا تقلْ لأحد شيئاً، بل اذهب أرِ نفسك للكاهن.... وأما هو فخرج وابتدأ ينادي كثيراً ويذيع الخبر حتى لم يعُدْ يقدر أن يدخل مدينة ظاهراً بل كان خارجاً في مواضع

خالية وكانوا يأتون إليه من كل ناحية» (مر١:٤٤،٤٥).

نعم إن عمل نعمة الله في الإنسان، والتي يرافقها حتماً حركة روحية ذات صفات الفرح والغيرة والامتداد خارج النفس، تجعل الإنسان لا يكفُّ ولا يستريح حتى يوصلها إلى الآخرين.

عمل النعمة في الجماعة: خبرات روحية تتلاقى لتمجيد المسيح:

هذه نواة الجماعة، فالجماعة تقوم على أساس خبرات روحية تتلاقى وتتجاذب بشدة معاً نحو غاية واحدة هي: تمجيد وتسبيح الله وشكر ومديح المسيح، حيث ينبري الروح القدس لينظم هذه الجماعة ويدبِّرها ويوحِّد أنغامها ويؤالف بين أنواع تشكراتها ليقدمها: "كنيسة متحدة عفيفة مخصبة" تمتد وتكبر وتزيد لحساب المسيح، ويهذبها لتنال صلاحية الدخول في عضوية جسد المسيح.

"الفردية في المسيح" وأثرها في تكوين الجماعة:

فالفردية في المسيح، من خلال التاريخ المسيحي كله، تظل تعاني العقم، وتئن تحت وطأة غنى الروح الذي يكاد ينفجر فيها من معاناة الانحباس، إلى أن ينجح الإنسان في توصيل خبراته للآخرين ليموت فرحاً مبتهجاً مسروراً، إذ يكون قد سلَّم الكنز ليُخصب به الجماعة.

وليس حتماً أن ينقل الإنسان هذا الكنز بالكلمة، فالله نور، وحلولُه يضيء الكيان الإنساني كله - يعبِّرون عنها أحياناً في الأيقونات بهالة حول الرأس. هذا صحيح جداً، ولكن الحقيقة أنها هالة تملأ أولاً الكيان من الداخل لتنبعث من الجسد كله كقوة جاذبية تجذب **القلوب والعقول**، أي تؤثر على **عواطف** الناس وتفكيرهم معاً؛ فلا تكون بعد الكلمة فقط هي المعبِّرة والجاذبة، بل الشخصية برمَّتها:

بحركتها وسكونها، **بكلامها وصمتها** - تصير قوة تخترق قلوب الناس وتُخضع فكرها، نوراً يبهر عين القلب وعين العقل لتسودَ شخصية المسيح داخل ذلك المجال في بساطة لا يصدقها العقل.

وهذا هو تأثير الفرد في تكوين الجماعة - فجماعة أتقياء الرب غِنَاها ورأس مالها في خبرات الأفراد، ومجالها الذي تتحرك فيه بسهولة وفرح هو حصيلة إلتقاء الأضواء المنبعثة من القلوب والعقول المستنيرة من جراء حضرة القدوس، التي تبدو وكأنها خبرات شخصية مع أنها دفقة واحدة من روح الله، انقسمت وتقسمت كألسنة نار لتستقر على الرؤوس وتسكن القلوب لحساب تحرُّكٍ محسوب من النعمة لمجد المسيح.

الموهبة تُعطي للإنسان ليفيض الله منها على الآخرين:

وليكن في علمكم تماماً أن ليس أحد من قديسي الله أخذ موهبة على قياس نفسه أبداً، فكل هبة وكل استنارة بل كل معرفة، بل كل فرحة ومسرة توهب للإنسان ليستمتع بنورها وحضورها قدر ما يطيق ليفيض الله منها على الآخرين مئات وألوفاً أضعافَ ما أخذ الإنسان. ولكن يظل الإنسان المسكين يظن أنها عطية أُرسلت له خاصة؛ مع أنها تظل ترن في أجواء العالم الروحي أجيالاً وراء أجيال لتُشبع الربوات عبر كل العصور. عجيب الله في سخائه على الفرد، ولكن أعجب العجاب كيفية امتداد سخائه عَبْر الأفراد إلى الجماعات وربوات الجماعات.

أشكروا المسيح الذي وهبنا أن نسير في نور قديسيه - سلامٌ لك يا بولا أول المتوحدين، يا من قضيت تسعين سنة في وحدتك، ثم انتقلتْ كل خبراتك في ساعة زمن ليرثها أنطونيوس ليورِّثها لأجيال الكنيسة كلها.

هكذا الفرد في عالم الروح هو غِنى الجماعة، وغِنى الجماعة مجموع مواريث تتلقفها الأجيال، ويظل الروح واحداً إنما متعدد العطايا، ليصوِّر المسيح في الجماعة من كل الزوايا، ليظهر المسيح كما هو مسيح الدهور كلها! ولتظهر كنيسة القديسين أنها جديرة بأن يُتصوَّر المسيح فيها في مخاض القديسين عَبْر الأيام والدهور.

ومجموع مواهب القديسين تتجمَّع لتُضاف للمسيح مرة أخرى:

وكل قديس يظهر في جماعة الرب يضيف بريقاً جديداً متألقاً لصورة المسيح في القلب، حتى صار وجه المسيح في قلوبنا كيوم التجلي، أو كظهوره في سماء شاول، أكثر لمعاناً من الشمس في وقت الظهيرة. ألم يقل الكتاب: «متى جاء ليُتمجَّد في قديسيه ويُتعجب منه في جميع المؤمنين»؟ (٢تس١:١٠).

نعم، يا أحبائي، فالنور الذي سكبه في القديسين كأفراد حسب مقتضى وضع هذا الدهر، سوف يتجمَّع ليُضافَ إلى المسيح مرة أخرى حينما يأتي في ربوات قديسيه كجماعة متحدة، ولكن كلَّ شعاع سيظل يشير إلى صاحبه، وكأنما الشعاع الذي خرج منه يعود إليه ليُضاف - من خلال قديسيه - إلى مجده، كما يقول بولس الرسول: «**مستنيرة عيون أذهانكم** لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو **غنى مجد** ميراثه في القديسين» (أف١:١٨).

انتبهوا، أيها الأحباء، فاجتماعنا ليس منا، والذي يضيف إلى الجماعة عسيرٌ أن يأخذ من الرب، لأن الله لن يتراءى مع أفراد بل مع جماعة هائلة، ولا تنسوا أبداً أن الرب يأمر ولا يترك لنا اختياراً: "فليضئ نوركم"، "وإنما إن كان أحدكم تُعوزه حكمة فليطلب من الله الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعيِّر. فسيعطَى له" (يع١:٥).

نحن نعيش الآن على خبرة الرسل القديسين والأنبياء الذين جاءوا بعدهم والأساقفة العظام الذين أُلهموا بالروح حدود الإيمان وحفظوه، هذا المسلَّم إليهم مرة من القديسين. إن نورهم يضيء عيون أذهاننا. ثم جاء عصر القديسين فرادى وجماعات، ورثتهم الكنيسة كأضواء أو كضوء واحد، كحزمة من شعاعات، وكل شعاع منبعث من مصدره، أسماء بلا عدد، يحيطون الآن على شكل هالة من مجد، كسحابة شهود مضيئة تضيء لنا في عالم مظلم، يحيطون حول وجه يسوع الذي استُعلن مراراً كشمس حقيقية تختفي من أمامها شمس هذا العالم.

انتبهوا، نحن بالنعمة مبنيُّون على أساس الرسل والأنبياء والمسيح نفسه. هذا مسلسل تاريخي في الكنيسة، المسيح جاء في نهاية الآية ليكشف أن الأنوار السابقة وإن كانت فعالة ومضيئة ووقعت موقع الأساس للكنيسة، إلا أن الرب جمعها في نفسه، فهي أنوار هادية وأشعة ذات جمال فائق، ولكن في المسيح فقط، ولكن بدونه لا نورٌ ولا ضياءٌ. فنحن كأفراد نأخذ من أبي الأنوار الذي يعطي بلا كيل، أي لا يعاير بمعايير، ولكن يظل ما نأخذه ليس لنا، ولا يُحفظ منحصراً في أشخاصنا، بل لابد أن يُرَدَّ إلى المثيل ليعرف النور طريقه إلى مصدره، ثم ينعكس على الجماعة كلها عبر التاريخ.

هذا النور يظهر كأنه منا وهو ليس لنا! هو منا بسبب اتضاع المسيح، لأنه أعطانا الذي له مجاناً بعقد تنازل وإخلاء، وهل ننسى أننا عبيد بطَّالون ولكننا انتسبنا له بالتبني فصرنا أبناء النور نضيء من بعد ظلام؟ ثم يتحتم أن ندرك أن النعمة وكل عطية صالحة يستحيل أن تبقى وحدها، إذ لا بد في النهاية أن يتجمَّع ما لله في الله مهما توزع علينا.

فإن كان هناك موضع مظلم ووضُع فيه عدة أنوار، أضاء الظلام

بمحصلة الأنوار جميعاً. فنحن في العالم أفراد ضعفاء للغاية القصوى، ولكن القليل القليل الذي في كل واحد منا يؤيده الله بروحه ليجمع منا جميعاً حصيلةَ نور قد يكون العالم محتاجاً إليه. ولكن الإنسان الذي يضيء كالمصباح يحتاج إلى زيت النعمة، أقول "زيت النعمة" ولست أقول "نعمة" فقط! فالنعمة لا تضيء فينا بدون زيت العرق والدموع والبذل والحب والتنازل حتى التراب لترتاح النعمة وتُشعل زيتنا هذا.

الكنيسة جماعة أرواح فاحذروا الجسد وحركاته:

كل واحد فيكم روح في الجماعة، لأن الجماعة التي أتكلم عنها ويتكلم عنها الكتاب أيضاً هي جماعة أرواح وليست جماعة أجساد؛ فالذي ينجمع فينا هو أرواحنا والذي يجمعنا هو هو الروح القدس. فاحذروا الجسد لأنه يعمل ضد الروح كما يقول بولس الرسول (غل٥:١٧). كل حركة جسدية نابعة من غرائزنا بالقول أو بالفكر كفيلة أن تمنع الروح من عمله وتقيِّده وتحزنه وتطفئه، ويصير الإنسان مركز ضعف في الجماعة عوض أن يدفعها إلى الأمام بصلاته وحبه وبذله، احترسوا! فالجسد هو عدوكم وعدو الكنيسة، والروح القدس لا يرتاح في جسد يعاديه، احترسوا.

❖❖❖

وفي الختام أهديكم أرق مشاعر المحبة التي سكبها المسيح في قلبي من نحوكم: الضعيف قبل القوي والمتواني عشرة أضعاف الساهر المتقي - يارب إسند ضعفنا وبارك متَّقيك.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

الله وميزان الحياة

حقيقة عملية غابت عن كثيرين فاختل ميزان حياتهم: **إذ يستحيل أن يعيش الإنسان حياة الصلاة والتأمل بصورة كاملة سويّة وفيض روحي لائق ونافع دون استيفاء حق ميزان الحياة: حياة "العطاء والأخذ".**

ولن يتكامل منهج الروح، إلا إذا تعادل استيعاب الإدراك والرؤيا والفهم، **مع التعليم والشرح**، للمجاوبة عن سبب الرجاء الذي حصلنا عليه.

فالكلمة التي قالها الرب: «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ» (أع٢٠:٣٥)، توضح اهتمام الرب بصحة المنهج والميزان بين حياة الأخذ جملةً وتفصيلاً وبين حياة العطاء، ليس بما يقدمه الإنسان من ماله وحسب بل ومن كل ما يمكن أن يتحصل عليه الإنسان بقلبه وفكره ويده.

والميزان الصحيح المعتمد لدى الرب هو أن **يميل الإنسان أكثر ناحية البذل والعطاء؛** الله ينحاز صراحة للعطاء الأكثر من الواجب والأكثر من المعقول «... هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين أَلْقَوا في الخزانة، لأن الجميع من فضْلَتهم ألقوا. أما هذه فمن إعوازها ألقت كل ما عندها كل معيشتها» (مر١٢:٤٣،٤٤). المسيح هنا يضع قاعدة للحب والوفاء لا يدركها إلاّ من تجاوز في تفكيره الحلول الوسط والالتزام بالناموس وحدوده: «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبعْ كل أملاكك... وتعال اتبعني» (مت١٩:٢١)! هنا يظهر ميزان الرب الحقيقي وتنكشف القاعدة التي يفكر بها المسيح ويتحرك. ألاَ إنه سائر إلى

الصليب؟؟ ألاَ إنه يدعونا لنسير معه على نفس الدرب «إسهروا ... أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة!؟!» (مت٢٦:٣٨،٤٠).

سر ثقل كفة العطاء:

ولكن هناك سر عجيب مخفي وراء جرأة تطبيب (ترجيح) كفة العطاء والبذل عن كفة الأخذ. هذا السر هو أن كفة العطاء منقوش عليها وملصوق في قعرها ١×١٠٠ نقشاً سرّياً، والثقل الملتصق أسفلها تضعه كل مرة يد خفية لا يراها الذين يعايرون.

هذه الحقيقة مثيرة للغاية لا تُكشف إلاّ للذي صمَّم على العطاء وبدأ ينفِّذ بالفعل. فنحن نضع حياتنا وما نملك على كفة العطاء. وإذ بالكفة تسجل على المؤشر مائة ضعف ما وضعنا، تسجِّله لحسابنا في هذا الدهر، ويرفع الحساب ليُحتسب رصيداً في ملكوت الحياة الأبدية.

والذي نقدمه للمسيح هو بعينه الذي نقدمه لأحد هؤلاء الأصاغر! فالكفة الأخرى، كفة العطاء، هي هي يد الرب مختفية في شكل طبق أو صندوق، أو حتى يدِ فقيرٍ أو أرملةٍ، أو ربما فم جائعٍ أو قلبِ حزينٍ أو نفسٍ متوجعةٍ!!

نعم، إذن، كلما طبَّت (رجحت) كفة العطاء بشدة، كلما دلَّ ذلك على صحة الميزان الذي يحكم حياتنا. فالعطاء غير المعقول هو العقل بعينه، والبذل "بجنون" هو منتهى الحكمة، فإذا بلغ العطاء حد تقديم الحياة نفسها حتى سفك الدم، توقف الميزان وصار يؤشر إلى أنه الآن قد **غُفرت جميع خطاياك ومُسحت جميع آثامك وذنوبك**، وعوض ثقل كثرة الخطية حلّت النعمة وازدادت جداً.

حقاً إنه ميزان عجيب للغاية يشتهي الإنسان شهوة أن يضع فيه كل شيء بل كل حياته. وطوبى للذي استطاع أن يأخذ عن صحة بسهر

الليالي، ودموع التوسل، ونهم الاغتذاء بكلمة الحياة: «وُجد كلامك فأكلتُه، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي» (إر١٥:١٦)، والالتصاق بتجّار الروح وحرِّيفي الإنجيل، ليكون دائماً على استعداد لمجاوبة كل من يسأل عن سبب الرجاء الذي فينا، ويكون له ما يعطي من كل نوع، ولا يخجل يوم تقديم حساب الوكالة.

ملء المسيح أخذٌ من الآب، وعطاءٌ للعالم:

تعلَّموا، تعلَّموا من الذي كان يذهب إلى الجبال ليبيت هناك ويمضي الليل كله في الصلاة، ثم ينزل يجول يصنع خيراً. أُنظروا هاتين الحياتين: الواحدة غريبة عن الأخرى تماماً، ولكن الذي صالح الأرضيين مع السمائيين والروح مع الجسد جعل الاثنين واحداً، جعل حياة التأمل والصلاة وسَكْب النفس أمام الله في الصلاة بطول الليالي جعلها قرينة حياة العمل والجهد والعرق. لقد جمع المسيح الحياتين في نفسه في قامة واحدة، وأعطانا أن نبلغ إلى ملء هذه القامة عينها!!

- «تعلَّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم» (مت١١:٢٩)

سؤال واحد أطرحه على جميعكم: هل سهرتم وتسهرون مع المسيح ساعة واحدة في وقت الحزن والتجربة والضيق؟

ثم سؤال آخر وكفى: هل أمضيتم معه الليل كله في الصلاة لتتعلموا سر الملء؟

ويلزم أن نعرف في الأساس أن قامة المسيح هي بالدرجة الأولى أَخْذٌ وعطاءٌ على أعلى مستوى يمكن أن يتصوره عقل، بل هو صميم السر الذي يتحرك به المسيح:

- «تعليمي ليس لي بل **للذي أرسلني**» (يو٧:١٦)، «**أنا حيٌّ بالآب**»

(يو٦:٥٧)، لأن «هذه هي **مشيئة الذي أرسلني**» (يو٦:٣٩)،

- «ليس لأعمل مشيئتي **بل مشيئة الذي أرسلني**» (يو٦:٣٨)،
- «أنا قد أتيتُ **باسم أبي**» (يو٥:٤٣)،
- «كذلك **أُعطى** الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يو٥:٢٦)،
- «الآب قد **أعطى** كل الدينونة للابن» (يو٥:٢٢)،
- «لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلاَّ ما ينظرُ الآب يعمل، لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك» (يو٥:١٩)

هذا هو ملء المسيح في أخذٍ كاملٍ وكلي من الآب، وهذا هو ملء المسيح في عطاء كامل وكلي للعالم.

أعطى كل شيء وكل ما يملك حتى دمه على الصليب، ونحن مدعوون إلى هذا الملء عينه أخذاً وعطاءً لنكمل مشيئة الله على نفس الميزان الذي سجَّل المسيح عليه أعماله... وختمه في آخر نسمة من حياته «قد أُكمِلَ» (يو١٩:٣٠)

لقد أخذ المسيح - على أبسط تعبير - أخذ حبَّ الآب الكلِّي، وذهب وسكبه على الصليب، وقد يتراءى لمستوى العقل العاجز أن هذا الحب يساوي ذاك الحب، ولكن الحقيقة تصرخ أن المحبة المصلوبة تُقدَّر بمائة ضعف ويزيد عن المحبة المأخوذة. وهل نتجاهل أنه لكي يقوى المسيح على "صَلْب المحبة" من أجلنا لتتحول إلى دم فداء، استلزم الأمر **أن يصير لعنة من أجلنا؟؟**

فإن أردنا أن نكون أبناء ذاك الذي مات على الصليب، ولو بالتبني، فعلينا أن نقدم المحبة التي نلناها من الآب والمسيح، نقدمها مقرونة حتى بألم ولعنة، لا مانع، لكي نكون أهلاً لهذا الدم أو بالحري نكون ملء قامة المسيح!!

غريزة الحياة الجديدة فينا تهوّن علينا عطاء البذل:

ولكن لا تخافوا، أيها الأحباء، فمحبة المسيح وصليبه المغروس في قلبنا لا يحتاج إلى جهد ليبلغ إلى الفعل والتنفيذ. لقد صار الدم وتحوَّل فينا إلى غريزة جديدة في إنساننا الجديد اسمها غريزة الحياة الجديدة مع الله التي تعادل في قوتها مائة مرة غريزة العراك والدفاع والبقاء للحياة الجسدية على الأرض.

إن جَذْبَ الله الآب لنا: «لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني» (يو٤٤:٦)؛

وجَذْبَ الابن لنا: «وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليَّ» (يو٣:١٤)، «لا أترككم يتامى» (يو١٨:١٤)، «سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم» (يو٢٢:١٦)، «سلاماً أترك لكم، سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم» (يو٢٧:١٤)؛

وجَذْبَ الروح القدس: «الروح والعروس يقولان تعالَ» (رؤ١٧:٢٢)، «... إنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم» (١كو١٦:٣)، «... الروح القدس يعلِّمكم في تلك الساعة ما يجب أن تقولوه» (لو١٢:١٢)؛

نعم، كل هذا الجذب يهوِّن علينا جداً بذل كل شيء رخيص وغال، بذل الصحة والمال والصيت الحسن، بذل الكرامة والراحة حتى الدم! فالأخذ، أيها الأحباء، هو بالحقيقة وعلى القياس السابق أصعب من العطاء بعكس ما يدور في قياس منطقنا المادي. فالأخذ أَخْذُ الحب واقتناء الروح واحتواء المسيح في القلب يحتاج إلى جرأة هائلة ودالة طِفْلية عميقة يصعب بلوغ بساطتها ونحن قد شِخْنا في المكر والحرص والتحفظ، أما العطاء فيكفي أن نتصور أن المسيح هو الذي يستقبل عطايانا أو حبَّنا وعطفنا أو حتى دمنا، لنقدِّمه سخيّاً هيِّناً ليِّناً، كذبيحة تستمد قوتها من الصليب بل بالحري الحب المنسكب علينا من الآب عَبْر المسيح.

العطاء يكون من الكنز الصالح (أي الروح القدس):

كما أود أن تعلموا أن العطاء لا يكون من فراغ، إذ لا بد أن يكون الإنسان قد اقتنى كنزه الصالح - «لأنه من الكنز الصالح تخرج الصالحات» (راجع مت ٣٥:١٢) - وفي إيماني أن الكنز الصالح لا يعدو أن يكون إلا الروح القدس، «لأن ليس أحدٌ صالحاً إلا واحدٌ وهو الله» (مت١٧:١٩،لو١٩:١٨). فمن يملك الروح يملك الصلاح؛ والعكس هام وأهم، لأنه لا أخذَ بدون أساس النية في العطاء، فإذا حاول الإنسان أن يأخذ لنفسه ليزيد ويكبر على الآخرين ويتعظم مثل الغني الجاهل الذي هدم مخازنه ليبني مخازن أعظم لتهنأ نفسه ويضمن لها الأكل الأفضل لسنين أكثر، قيل له: «يا غبي، هذه الليلة **تُطلب نفسك منك**، فهذه التي أعددتها لمن تكون؟» (لو ٢٠:١٢).

هكذا أيضاً كل من جاهد وسهر وحفظ ليظهر أنه أعظم وأفضل، ودرس الكلمة ليكون الأول بين المتكلمين، فإنه يكون قد أخذ لنفسه وليس بهدف تسليم الروح وأسراره للآخرين، هنا الأخذ ينحصر في الكرامة وتضخم الذات وكبريائها بالمعرفة والعلم، و"العلم ينفخ" أما الروح والمحبة فتبني! (راجع ١كو١:٨).

يتضح الآن أن ميزان الحياة في الأخذ والعطاء يكون صحيحاً إذا كان مدموغاً بخاتم الروح القدس على أساس أن العطاءَ هو هدفُ الأخذ. فإذا كان العطاء أميناً صادقاً صحيحاً كان الأخذ بلا كيل، لأنه «ليس بكيل يعطي الله الروح» (يو٣٤:٣).

❖❖❖

وختاماً أبعث إليكم بحبي. ولو استطعت لأعطيكم ليس ما أخذت وحسب بل نفسي ذاتها وروحي إن كان فيها ما يمسح دمعة واحدة من عيونكم. ولكني عالم أني فقير وعريان، ولكن أنا مشغول في شراء ما يسترني قبل أن يأتي يوم الفحص.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

أنا والعالم
أو علاقة الداخل بالخارج

حقيقة أساسية، يلزم أن تُحفظ عن ظهر قلب: **إن الحياة التي نحياها على الأرض يستحيل فصلُها عن حياة الروح.**

هذه الحقيقة قائمة على وعد إلهي «**وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر**» (مت٢٨:٢٠)، ووعد آخر من فمه القدوس: «**لن أترككم يتامى... أنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد - لأنه ماكث معكم ويكون فيكم**» (يو١٤:١٨،١٦،١٧).

الالتصاق بالروح واستقامة المسير
مهمة ملقاة على الروح القدس:

وأُنبهكم إلى مصدر استحالة فصم الروح القدس عن الذين استحسنوا أن يجعلوا الله في معرفتهم، وتهيأوا في الداخل ليرتاح الروح القدس في أحشائهم بسرور. لأنه من الواضح أن سُكنى الروح في القلب جعلها الله (أي جعل السُكنى) مهمة ملقاة على الروح القدس نفسه، وليس علينا إلا تسليم الإرادة. لذلك، لا يني الروح القدس ولا يفتأ عن أن يجرَّ المدعوين إلى الوليمة سواء كانوا داخل السياجات أو خارجها، وهكذا يقطع عليهم طرق الانفلات والهرب، ويلاحقهم في الجبال والوهاد، ويخطفهم من فم الذي يفترسهم، ثم يلتقطهم كشعلة مجتذبة من النار.

(ملاحظة: علماً بأن تقسيم الناس إلى من هم مستحقون "داخل

السياجات" وغير مستحقين "خارج السياجات"، هو من عمل الإنسان لا من عمل الله، لذلك تخطَّاه الله في مثل الوليمة).

إنه لا يملُّ من إعادة غسلهم من وسخ وحل العالم وحمأة طين الشهوة الميتة، ولا يكلُّ عن تأديبهم برفق مثل المربِّية الحانية التي تطلب صحة ابنها لا تعذيبه أو تغريمه مجاناً.

فالالتصاق بالروح القدس واستقامة المسير على درب المسيح حتى الجلجثة أمر مُلقًى على عاتق الروح، وكل المطلوب من الذين بدأوا المسيرة أن لا يعاندوا الروح لئلا تتمزق أثوابهم (أي غطاء النعمة)، كالسمكة المعاندة الممسوكة في شصِّ الصياد، وهي تحاول الانفلات بلا جدوى. فنحن في شبكة الروح نعيش ونتحرك، ونظهر وكأننا أحرار في جرينا يميناً ويساراً، ولكن محاولة الهرب معناها أن الروح سينبري ليتخذ إجراءاته اللينة والعنيفة أحياناً، حتى لا تفلتَ الفريسة، أي النفس التي اختارها الروح لتكون عروسة للمسيح.

فماذا أقول لكم هنا؟ إلا أن احترسوا! لأن الروح القدس يصعِّد وسائله في جذب المعاندين إلى درجة قد تبلغ حتى الجفاء بل والتسليم المؤقت ليد المجرِّب بالشرور، ليستوفي حقوقه علينا، حينما ننقاد إلى مشوراته اللئيمة لإفساد خلاصنا. ولكن حاشا للروح القدس أن يتأخر عن النجاة عند أول صرخة تصدر من أعماق قلب مجروح تائب!

وهذه حقيقة مفرحة حقاً: إنه كما اتحدت النفس مع الجسد فظهر الإنسان وتراءى كأنه واحد، هكذا يلتحم الروح القدس بنا بذات الالتحام، فيظهر الإنسان الروحي دون أن يُرى الروح القدس أو يُحَسَّ به. إنه إتحادٌ سرِّيٌّ يتم من خلال الأسرار والكلمة، ليصير الروح القدس شريك الحياة في الإنسان، في شركة سرية تفوق في قوتها وديمومتها إتحاد النفس مع الجسد. هذه (أي شركة اتحاد النفس مع

الجسد) هي زمنية، وتلك (أي شركة الروح القدس مع الإنسان) أبدية؛ هذه قابلة للانحلال؛ وتلك ثابتة ثبوت الخلود، متجاوزة لكل الأجيال!

فرحة الملء لا تطفئها أحداث الزمان:

أما ما نُحسُّه من هذا الرباط الأبدي مع الروح القدس، فلا يتعدى – من جهة الإحساس به – فرحة الملء التي تسكن القلب والتي لا تطفئها أحداث الزمان الموجعة والمفجعة كلها؛ وكأن الروح مخدِّر سماوي يُفقدنا الحسَّ بالزمن بكل كوارثه وزعازعه وأوهامه، ويجعل يقظة الروح تتملك على كل ملكات الفكر والعقل في أحلك مواقف الجزع والفزع، مما يُبرز برهان وجود الروح وحقيقة الاتحاد السري القائم داخل القلب، كشهادة حية لحنان الله وتعطفاته الجزيلة للإنسان المتغرب في هذا العالم.

ولكنها لا تطفئ الحسَّ البشري بالعالم والناس:

ولكن وجود الروح لا يُنقِصُ من وعي الإنسان النفسي والعاطفي، ولا من حرية الإرادة ومسار الوجدان الإنساني؛ فالإنسان الروحي يتضاعف فيه الحسُّ البشري بالعالم والناس إلى درجة الامتياز المطلق على الإنسان الطبيعي، فالروح القدس يُبرز صورة الله الأصلية في الإنسان.

يا للمجد! ويا لسعادة الإنسان! أُنظروا إنساناً تكون صورة الله قد نضحت عليه، فكم يكون امتيازه؟ وإلى أي مدى تصل ملامح صفاته؟ نعم! تصل إلى السماء لتُضارع رقة الملائكة. أليست روح ذلك الإنسان قد تهيأت للدخول في زمرة ربوات الأرواح المكمَّلة في المجد؟ هذا هو إنسانُ الله الذي تنتظره الخليقة بلهفة وهي تئنُّ وتتوجع منتظرة فكَّ

أسرِها عند استعلان اكتمال فداء الإنسان.

يا لغنى العالم بالإنسان الروحي! فالعالم جميلٌ جمالَ الذي خلقه وقال عنه عند اكتمال خَلْقِه إنه «حسنٌ» (تك١:٢٥)، ولما خلق الإنسان ليعمله قال إن العالم صار «**حسناً جداً**» (تك١:٣١). لقد ضاع حُسْن العالم وجماله، لما انحطَّ الإنسان عن درجته الروحية، التي كان يقف فيها ليتكلم مع الله بشأن العالم وجهاً لوجه وفماً لأذن.

في الإنسان الروحي

يستعيد العالم صلته المفقودة بالله:

الآن وفي الإنسان الروحي ومن خلال الروح وبواسطته، يستعيد العالم صلته بالله، وبالتالي يستعيد حُسْنَه وجماله. الإنسان الروحي عندما يتجلى نفساً وروحاً وعطفاً وشاعرية، عندما ينسكب الروح عليه، روح الجمال الحقيقي؛ حينئذ يتجلى العالم فيه وبه، بمائه وترابه، بسمائه وجباله، ويتجلى الناس جميعاً، إذ ليس أحدٌ قط نجساً أو دنساً في عين الروح القدس، ولا في عين مَنْ امتلأ بالروح القدس، فالكلُّ حسنٌ في عينيه وفي فمه وعلى قلمه!

على أن ملءَ الإنسان بالروح ليس قاصراً على رؤية عالم الروح والروحيين وحسب، بل هو ينعكس حتماً على كل ما تقع عليه عين الإنسان الروحي وكل ما يخفق له قلبه. فعالم الطبيعة هو في رؤيا الإنسان الروحي جزءٌ لا يتجزأ من ملكوت الله، هذا إذا تجلى بوضعه الروحي السري الأول. وإذا سقطت عنه كثافة المادة بغرائزها المشوشة التي انحصرت في الوجود المادي، لذلك حينما تنغلق عين الإنسان الروحي وتضيق عن اكتشاف حسن جمال العالم كما خلقه الله حسب مسرة مشيئته، يضيق الإنسان الروحي في نفسه ويصير كواحة صغيرة في

صحراء العالم القاحلة الماحلة؛ أما إذا انفتحت عين الروحاني، فإنه يرى جمال الله في الكون، ولا يكفُّ ولا يهدأ ولا يتأنى بالقول والفعل والعمل عن أن يعيد إليه جَماله المفقود بقدر ما أوتى من جمال وبقدر ما ينسكب عليه من حُسن سماوي.

إن الروحيين هكذا، هم في العالم جمالُ الله متحركاً على الأرض، كزهور يانعة في جنة القدوس. يراهم فاقدو الحس الجمالي الروحي، وكأن لا وجود لهم، وتبقى الدنيا في نظرهم وكأنها جهنم. حاشا! فالذي خلق الجمال لا يلوِّثه، وكذلك الذي خلق الإنسان على صورته بكل جمالها للإنسان، وبالتالي للأرض التي هي لا تزال موطئ قدميه.

يا لعظم مسئولية الأبرار والقديسين على الأرض! لقد أُنيط بهم، من خلال الروح القدس، تمجيد الله وتسبيحه والإعلان عن جماله بفم كافة الناس والمخلوقات. فإن سألتم عن العلة الأساسية في خلقة الأرض ودنيا الكواكب والنجوم وخلقة الإنسان والحيوان، لكان الرد كلمة واحدة: "**تمجيد الله**". هذه هي الغاية التي إذا بلغناها نكون قد حققنا وجودنا بحسب مشيئة الله! وأضأنا العالم بنور الله: «لأننا رائحة المسيح الزكية لله في الذين يخلصون وفي الذين يهلكون. لهؤلاء رائحة موت لموت ولأولئك رائحة حياة لحياة» (٢كو٢:١٥،١٦).

إذن، فالروحيون هم عِطْرُ الأرض الذي ينشر عبيق اسم الله وصفاته وعمله، ليفوح في وسط موات الدنيا ليُحييها ويجدد وجه الأرض.

مسئولية الروحيين تجاه العالم:

نحن الآن وفي هذا الزمان نعاني من رائحة نتن صادر عن أحياء هم أموات بالروح، أنتنت أرواحهم وأفسدت كثيرين. ما أشد حاجتنا إلى مجمرة النار وبخور الصلوات، لنحجز بين الصفَّيْن ليقف

الوبأ (مثلما حدث في أيام موسى النبي وهارون الكاهن حينما حدث وبأ في الشعب: سفر العدد ١٦: من عدد ٤٦)!

نحن داخلون في عصر الجمود لاكتمال الإثم وكثرته المريعة تمهيداً لتجديد وجه الأرض وظهور كنيسة المسيح الروحية، كنيسة المجد والتمجيد، ليتنسَّم منها الله رائحة الرضا، فيعفو عن جهالة الأجيال التي احتقرت الروح وازدرت بالدم وداست المقدسات.

إن مسئوليتنا هائلة تجاه عالم اليوم، **فإما** نطهِّر أنفسنا من دنس العالم ومن كل ما يُعمَل ويُصنَع كذباً وغشاً، ونخضع لعمل الروح القدس ليُصلح فينا ما فسد، ويجدِّد أجزاءنا الميتة، ويبتر فينا ومنا كل اعوجاج وإثم؛ حتى نصبح أداة صالحة لعمل الله في هذا الزمان؛ **وإما** تكتسحنا موجة الفساد والغش واللؤم والكذب.

وأكرر كلمة "**الكذب**"، وأكاد أصرخ "**الكذب**" "**الكذب**"، لأن هذا الداء الوبيل يفوِّت علينا الملء من الروح القدس. فكل من يتظاهر بالتقوى وهو ليس تقياً، فهو كذاب. وكل من يظهر بمظهر القداسة وهو يهين جسده ويبعد صوت الله عن ضميره، فهو كذاب، وكل من يظهر بأنه لائق لملكوت الله وهو ممسوك بالعالم وأمجاده، فهو كذاب. وكل من يدَّعي النور وهو يسير في مسالك مظلمة، فهو كذاب. والكذبة لا يدخلون ملكوت الله. أما الصادق الأمين الذي **باع وباع وباع** كل شيء وانتهى، باع الدنيا بكل مواريثها الغاشة الكاذبة، باع الأهل والصديق والراحة واللَّذة والشهوة، وسلَّم الجسد والنفس والروح لليد التي تُحيي الموتى، فهو حيٌّ وهو للملكوت مدعوٌّ، ولتمجيد الله حُفظ له مكان مسجَّل وسط الأبرار المسبِّحين في خوارس السماء.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

إيقاظ الوعي الروحي نحو العالم

الخبرة الروحية التي يحصل عليها الإنسان الروحي لا يمكن الاكتفاء باحتسابها خبرة شخصية تبدأ مع الشخص وتنتهي إليه. فالعالم والبيئة شريكان فيها أخذاً وعطاءً؛ لذلك فالاختبار الروحي يُحسب بالمعنى العميق الدقيق أنه "هو الحياة في ملئها"، **واستعلانها للشخص نفسه، وللعالم تأثُّراً وللبيئةِ نَفَاذاً.**

فإذا انحصرت الخبرة الروحية في صاحبها وبَخِلَ أو عَجَزَ عن توصيلها للآخرين، ماتت فيه، وصارت حياته في العالم لا تُحسب حياةً للعالم أو امتداداً في المستقبل.

الصلة بيننا وبين العالم، في نظر المسيح:

من هذا يتضح مدى أهمية: «إذهب وخبِّر (الناس) كم صنع الرب بك» (مر٥:١٩)، وبالتالي يتضح لكم، أيها الأحباء، مدى أهمية الصلة التي تربطنا بالعالم في نظر المسيح. فالعالم شريك في اختبارنا الروحي وله حق فيه، ثم هو محتاج وعطشان حقاً لمعرفة واختبار ما أخذناه من الله!

العالم مثل إنسان مريض، ولكنه مفتوح على الله عَبْر أتقيائه المخلصين. فنحن آذان العالم المفتوحة لسماع صوت الله، نحن المنافذ الوحيدة التي يعمل الله بواسطتها لتجديد وجه الأرض. فماذا لو ضاقت هذه المنافذ في ذاتها؟ ألا يتوقف توصيل الروح والحب والحياة والنور إلى العالم، فيختنق ويجف؟

العالم يئن من خلال الأشرار والعُصاة والظَّلَمةِ، ويتوجع بعلمائه

الملحدين وفلاسفته الضالين المضلِّين، وهو يتطلع إلينا. إن خبرات الروحيين الأتقياء هي رئة العالم التي يتنفس بها ليعيش.

أُنظروا كيف نعيش نحن اليوم على غذاء الروح الذي تركه لنا الآباء بخبراتهم، وكيف لا زلنا نتملَّح بملح الروح الذي تكلم في القديسين الأتقياء عَبْر أجيال قبلنا، والذين نورُهم ملءُ أعيننا، نسير الآن على هُداهم كمصباح مضيء في موضع مظلم، إلى أن يسطع نور وجه المسيح في قلوبنا؛ والذين نحن نتنفس بالروح المخفي في أقوالهم والمنسكب عليهم من الروح القدس.

أما الذي يُخفق فينا بأن يحقق لنفسه الصلة بالمسيح وخبرة روحية حية يوصلها للآخرين، فهو يصير ثُقلاً على العالم، أو على أقل تقدير كميةً مهملة يحملها العالم، وهو يسير مخترقاً الزمان نحو نهايته المرسومة. خبرتنا ضرورية وحيوية وهامة لنا جداً، أما بالنسبة للعالم فهي خطيرة للغاية، لأنها تؤثر في مسيرته إن سلباً أو إيجاباً.

أنا لا أضخِّم الموضوع، ولكني أُبرزه أمام فكركم بصورة صارخة لأنه يستحيل أن يكون وجودنا مفصولاً عن العالم. ولا يمكن أن يُقال أن العالم موجود بدون وجودنا. ولكن ربما تكون الوحدات التي يتركب منها العالم مع كل واحد منا (أنا والعالم، وأنت والعالم، وكل إنسان والعالم) ربما تكون هذه الوحدات صغيرة للغاية في الرؤيا العامة، ولكن أليست هي الوحدات التي يتكون منها العالم؟ كقوالب الطوب التي يتكون منها مبنى شاهق، فالقالب يكاد لا يُرى من بعيد مع أنه أساس شموخ هذا المبنى.

أُنظروا! أنتم لَبِنَةُ هذا العالم «الذي إذ تأتون إليه (إلى المسيح) حجراً حياً، مرفوضاً من الناس، ولكن مختار من الله كريم. كونوا أنتم أيضاً مبنيين كحجارة حية، بيتاً روحياً...» (١بط٢:٤،٥).

مطلوب أن نبرز خبراتنا وندفعها للعالم بصورة جادة وواضحة بقصد واحد شريف ونبيل، هو أن يغتني العالم بالله عَبْر وجودنا وعملنا وقولنا وحياتنا!

حياتنا بالروح وحياة المسيح فينا
هي التي تؤثر في المجتمع والعالم:

إذا لم نكن أحياء بالروح؛ وإذا لم يكن المسيحُ يحيا فينا بالروح والحق، فيستحيل أن نؤثر في المجتمع حولنا وبالتالي في العالم، فماذا تكون قيمتنا؟ لا شيء؟ وبطرس الرسول يصرخ في وجهنا: «إن تزكية إيمانكم (أي شهادة العالم لنا وتقييم الله لإيماننا) هي أثمن من الذهب الفاني» (١بط١:٧).

من هذا كله يتضح أمامكم أن شهادتنا للمسيح عن يقين الفكر والعمل والسلوك هي هي عملية إحياء بل تقديس للعالم، وتُزكينا وتزكِّي العالم معنا أمام الله، حتى لا يقع العالم تحت حكم الفناء كسدوم وعمورة.

العالم ليس شريراً، فهو مخلوق بيد الله:

ولا تنسوا أبداً أن العالم مخلوق بيد العليِّ القدير، فهو ليس شريراً ولا هو مهبطٌ للشر، ولكن حتى وإن وضع في يد الشرير، لكنه لا يزال بنا نحن أولاد الله، أقول، لا يزال العالم كله برُمَّته يُعتبر بنا حقيقة إلهية، والإنسان التقي يمثل قلب العالم ورئتيه وعينيه التي يحيا بها ويري! «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد» (يو٣:١٦).

وهوذا سرٌّ أقوله لكم، إنه يستحيل أن تهنأ لنا حياة، ولن يستقر في قلبنا سلام، إلا إذا تبدَّلت رؤيتنا للعالم الذي نلعنه كل يوم مائة مرة.

فالعالم حقيقة إلهية وليس خلقة شيطانية. ويلزم أن نقنع أنفسنا ونعدِّل إدراكنا ونرسِّخ فكرنا لنرى العالم، من خلال الله والأتقياء، كعمل إبداعي غاية في الجمال والإتقان.

لا وجود لإنسان بدون الله،
ولا وجود له بدون الكون والآخرين:

إن خطر عدم الوعي الصحيح بالعالم والكنيسة، أي بأتقياء الله، يُفقدنا الثقة بوجودنا ويُعدمنا الرؤية الصحيحة لهدفنا وهدف العالم في الحياة. لأن الاستقلال، أو محاولة الاستقلال بشعور الإنسان في نفسه من جهة وجوده الخاص دون أن يلتحم بالوجود الكلي للكون والوجود الروحي لله داخل العالم، من خلال كنيسته أي قديسيه، هذا الاستقلال يُضعف جداً يقينية الإحساس بوجودنا الشخصي؛ فيبدأ الإنسان يشك في كل شيء. لأن الحقيقة الصارخة هي أنه لا وجود لإنسان بدون الله، وبالتالي لا وجود له بدون الكون والناس الآخرين!

ولكن سيظل إحساسنا بوجودنا وحياتنا وبأهمية هذا الوجود الشخصي وهذه الحياة الشخصية ناقصاً، طالما نحن لم نلتحم الالتحام الكامل واللازم بالله والعالم والآخرين، من خلال علاقة روحية بالله جادة جداً وعلاقة حُبِّية غير متحيزة للناس.

مثلث الحياة لكل إنسان:

فإن الله، وأنا، والناس، هم مثلث الحياة لكل إنسان، إذا فُقد عنصر (أي ضِلْع) منه فُقد هو بجملته. ولكل واحدٍ منا رؤيته لهذا المثلث، ولموقع "أنا" منه. ولكن ليس أن أبعاد هذا المثلث ثابتة، ولكن الإنسان يرقى إليه على مستويات عديدة للغاية، ترتفع وتهبط كل يوم، ولكن

تزداد اتساعاً وعمقاً ورسوخاً على مدى الخبرات الروحية عبر الأيام.[١]

على أن نمو الإنسان يعتمد في خبرته بالله على الاعتراف المتواصل بصغر الإنسان وضعفه بالنسبة لإدراكنا لعظم أعماق الله واتساع العالم. وبقدر تفتُّح وعي الإنسان وامتداد بصيرته، يكون نموه وسط خضم من الحركات والنبضات الآتية من الله نحو العالم، عَبْرَ الإنسان وأولهم أنت. هذه النبضات الإلهية المتوالية والهائلة المهداة رسمياً للعالم كل يوم، تريد مَنْ يستقبلها ليترجمها إلى أفعال محبة وحنان ولطف وأحشاء رحمة على كل فقير وشقي وبائس وعريان، بل وعلى كل من هو في حاجة إلى أن نمسك بيده أو فكره أو قلبه، لنعبر به تعثرات الدنيا التي لا تنتهي: «لأن مراحمه لا تزول، هي جديدة في كل صباح» (مرا ٣:٢٢،٢٣).

الوعي الروحي للقديسين تجاه الله:

وهنا يلذ لي جداً أن أنبه إلى أن العالم لا يمكن تصوُّره، بل يكاد لا يكون لوجوده معنى، بدون وجود الإنسان. فالله خلق العالم للإنسان، وخلق الإنسان للعالم، وخلق الاثنين لإعلان وجوده هو وتمجيده. فالمجد والبركة والعز والتسبيح لاسمه القدوس الذي وهبنا إعلان مجده وأهَّلنا لتسبيح اسمه؛ وكشف لنا عن عمق مقاصده التي لا عمق لها من جهة خلقتنا؛ وغرس وعي الحياة والخلود في حِسِّنا، لندرك بيقين أننا به نحيا

(١) فإن أضلاع المثلث تمثل الثلاثة العناصر: الله - أنا - الإنسان الآخر (الناس). فإذا صغر ضلع الله في هذا المثلث في حياتي، فهذا معناه أن علاقتي بالآخرين قد طغت على علاقتي بالله [حينما يصغر ضلغ "الله" جداً يكبر الضلعان الآخران "أنا" و"الناس"]. وقد تزداد علاقتي جداً بالله على حساب الآخرين، فحينئذ يكبر ضلع "الله" جداً، فيصغر الضلعان الآخران: "أنا" و"الناس". ولكن الوضع المثالي حينما يكون المثلث متساوي الأضلاع.

ونتحرك ونوجد، وهو عن كل واحد منا ليس ببعيد.

هذا وعيُ القديس بولس بالله والعالم والناس، هذا الوعي هو تراث حياتنا الذي إذا تفتح فينا، لأَدْخَلْنا العالم في صلواتنا، كما نصلي من أجل الهواء والماء والثمار والزروع والكنيسة. فالعالم يجمع هذا كله، وهو يتجه بحركته إلى الله عَبْرَنا وبواسطتنا؛ فنحن إمَّا نشكل عامل جذب للعالم نحو الله إن كنا قديسين حقاً وبلا لوم أمامه، وإمَّا نعيقه عن مسيرته البطيئة التي يندفع بها بالقصور الذاتي بدَفْع سابق اشترك فيه قديسون كثيرون وشهداءٌ بلا عدد!

فهل سيفقد العالم حركته إذا استنفذ حركة القصور الذاتي التي تجمعت له من صلوات القديسين السابقين ويقف (روحيا)؟ أم أننا سنكون جديرين باسم آبائنا وتراث أجدادنا وحركة الروح الناشطة التي كانت تتقد بها أرواحهم؟

صراحة، أنا أتوسم فيكم أن تكونوا أكفاءً لهذا، وأن تكونوا للعالم كله مصدر حركةٍ وبركةٍ وقوةٍ ونور وقيادةٍ، لماذا؟ لأني أحس بيقين أن الروح الذي كان يتدفق على الآباءً هو بعينه الذي يفوح منكم، حتى في منتهي ضعفكم. فغِنى الروح لا يبالي بضعفنا إن كنا حقاً نطلبه ونشتاق إليه ونسعى في إثره بدموع.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

رسالة رقم ٩

- أنا والله -

الخبرة الروحية مبدؤها ومنتهاها

أكتب إليكم أيها الأحباء عن أعظم شيء ربحته في حياتي الرهبانية، أكتب إليكم عمَّا فعله بي الرب وما فعلَتْه معي الخبرة الروحية أو الاختبار الروحي.

كنت أستصغر دائماً وبصورة مستمرة اختباراتي الروحية، وأعتبر أني غير مؤهَّل أن أتكلم أو أكتب عن الاختبار الروحي وذلك لمدة طويلة تجاوزت الخمس سنوات. ولكن أقنعني الرب فاقتنعت أنه لا ينبغي أن يتوقف الإنسان عن الشهادة طالما أنه أخذ شيئاً من الله، وأن لا يستصغر الإنسان الخبرة الروحية مهما كانت ضعيفة، لأنها خميرة الإيمان الذي يبدأ كحبة خردل.

بداية الخبرة الروحية: بذرة مخفي فيها شوق النفس نحو الله:

هكذا تكون خبرتنا في البداية، بذرة إلهية مخفي فيها شوق النفس نحوه. فالصوت الإلهي يأتي إلى الإنسان في البداية ليس كالبوق بل خافتاً جداً، بحيث إذا قَبِلَه الإنسان بهذه الصورة الخافتة الضعيفة يُحسب له إيماناً، ويُرصد له لحساب استحقاق أكثر للدخول إلى اختبار أعمق، ويؤهَّل لسماع صوتٍ من الله أكثر وضوحاً.

يا لحكمة الله وصبره ودقته المتناهية في معاملته لبني الإنسان وجذبه لمختاريه. والله يعرف كيف يُخضع أولاده بصوته الرقيق هذا. ألم نُغلب له، فَسَعَيْنا وراءه في الجبال؟

ولا تظنوا أنه يمكن الدخول في عِشْرة مع المسيح وعزاء الروح القدس في البداية بصورة علنية مكشوفة مفاجئة، فجميع الذين استعلنوا المسيح بقوة وفجأة كانت لهم خبرات كثيرة سابقة مع الله، ولكن مخفية لا يعلمها أحد، انتهت بمواجهة المسيح، مثل شاول (بولس الرسول): «كنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثير من أترابي في جنسي إذ كنت أوفر غيرةً في تقليدات آبائي» (غل١:١٤).

التعمق في الله يستحيل بدون التعمق في كلمة الإنجيل:

ولكن، على أية حال، ليكن معروفاً لديكم أنه بدون اختبار الرب من داخل الكلمة - كلمة الإنجيل الحيية - يستحيل التعمق في الله. فالاختبار الروحي هو المنطلَق الوحيد لحياة الشركة مع الله، حيث كلمة "الاختبار" هنا تفيد التعرف: التعرُّف على المسيح، فهو الذي يجذبنا إليه ويجذبه إلينا؛ وحيث يكون في الاختبار تذوُّق الرب: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» (مز٣٤:٨)، ومع التذوق حب ولذة طاغية، وهذه هي التي تثبتنا في المسيح حيث نستقبل الرب على نبرة[2] أعلى جداً من نبرات العالم وشهوات الجسد.

فنبرة الحب الإلهي داخل القلب، حتى للإنسان المبتدئ جداً، تكون طاغية تلغي تماماً كل نبرات العالم وصخبه وكل شهوات الجسد وجنونها! «سمعتُ صوتك في الجنة فخشيت» (تك٣:١٠).

---

(٢) النبرة هي تأثير الصوت على الأذن.

ما هو الاختبار الروحي؟

وقد يسألني أحدكم: **وما هي الخبرة الروحية؟ وكيف أختبر الرب وبالتالي أتعرف عليه؟**

رداً على ذلك أقول: إن الخبرة الروحية يمكن تلخيصها في ثلاث كلمات لا تُنسى قط:

إقرأ، صلِّ، إقرعْ

إقرأ في الإنجيل، ثم اركع على ركبتيك وصلِّ بما قرأت، ثم حوِّل الصلاة إلى لجاجة التي هي عينها تفيد كلمة "إقرعْ"، إقرع باب أحشاء تحننات قلب الله، ثم انتظر بلهفة وشغف غير متقلقل وغير مرتاب، وسوف ترى كم سيقترب إليك الرب بتواضعه المذهل العجيب: «الرب قريب» (في٤:٥)، «إن سمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي» (رؤ٣:٢٠).

هذه، يا أولاد النعمة، مواعيد! ومواعيد الله صادقة وأمينة وثابتة لا تتزعزع ولا تتغير ويطويها الزمن كصفحات التاريخ، ولا تزعزعها الحوادث والمآسي والأمراض! «أمين هو (الرب) الذي دعاكم الذي سيفعل أيضاً» (١تس٥:٢٤).

الرب دعانا لنكتشف سر الروح لنُسعد أنفسنا والآخرين:

- «ولكن لما سُرَّ الله الذي أفرزني من بطن أمي **ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيَّ لأُبشر به بين الأمم**، للوقت لم أستَشِرِ لحماً ودماً» (غل١:١٥،١٦).

- «إن الله اختاركم من البدء **للخلاص بتقديس الروح وتصديق الحق، الأمر الذي دعاكم إليه بإنجيلنا لاقتناء مجد ربنا يسوع المسيح.**» (٢تس٢:١٣،١٤).

فالرب لا يطلبكم فقط بل يطلب العالم فيكم وبكم.

الإنسان، أيها الأحباء، مدعو للامتداد نحو الله في صميم طبيعة خلقته التي خلقه بها الله، والروح يجعله مُستقبِلاً صالحاً لنبضات النعمة الإلهية، يسجلها في قلب واعٍ وضمير منفعل حساس، لتفرِّخ داخل قلبه وتثمر إثماراً صالحاً: براً وتقوى ومخافة الله، وسلوكاً يُشهَد به وله في الأرض والسماء.

صوت الله يبدد كل أصوات الشر:

يقولون، أيها الأحباء، إن أصوات الشر في العالم صارت في هذا الجيل تصمُّ الآذان وتجذب القلوب إلى الشهوة والفساد - هذا صحيح مائة بالمائة - ولكن صحيح أيضاً أن صوت الله هو ذو نبرة خافتة إلا أنه إذا قبله الإنسان، تضخم ألف مرة في قلبه واستطاع هذا الصوت أن يبدِّد كل الأصوات الأخرى، ويسود، ويملك، ويقود الإنسان إلى مصدر راحته الوحيد: «**تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم**» (مت١١:٢٨).

في الخبرة الروحية تكمن راحة الإنسان:

أُنظروا، لقد وازن الله - أولاً - بين **ثقل حِمْل الإنسان** وبين نفسه "**تعالوا إليَّ**"، وترك الإنسان ليختار تحت أيهما يعيش: إما بؤساً وشقاءً وأنيناً وشكوى، وإما راحةً تدوم إلى الأبد.

وفي مضمون كلمة "**تعالوا إليَّ**" **تكمن الخبرة الروحية** أو الاختبار الروحي الذي يبدأ بأول خطوة وهي قراءة **الكلمة**، وينتهي الاختبار الروحي بكلمة "**وأنا أريحكم**".

وهل بعد حصول الإنسان على راحته القلبية بيد المسيح وحلوله

الشخصي، توجد راحة أو مزيد من الراحة؟ هنا البداية للاختبار وهنا النهاية – خطوة واحدة من جهتنا تنتهي بسُكنى المسيح في قلوبنا إلى الأبد! «شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني» (نش٦:٢)، «...أمامك شبع وسرور، في يمينك نِعَمٌ إلى الأبد» (مز١١:١٦)، «بركة الرب هي تُغني ولا يزيد معها تعباً» (أم٢٢:١٠)، «أنا هو نور العالم» (يو١٢:٨)، «أنا هو خبز الحياة» (يو٣٥:٦)، «إنْ عطش أحد فليُقبلْ إليَّ ويشرب» (يو٣٧:٧)، «أنا هو القيامة والحياة» (يو٢٥:١١)؛ وهل نحتاج لأكثر من ذلك؟ ثم كيف نستغني عنه؟ هل ممكن؟

إذن، حينما أقول: إن الإنسان مدعو للإتجاه نحو الله في شخص يسوع المسيح واختباره الذي هو الباب والطريق، وإن اختبار الرب أمر حتمي، فهل أكون قد تجاوزت الحقيقة؟

وهنا أعود فأقول: إن كان هو الباب والطريق والحق والحياة ونور العالم وخبز الحياة ومصدر الارتواء، وإن كان هو القيامة ذاتها بعد الموت وقبله، إن كان هو هكذا جميعه، فهل نستطيع أن نفلت من الدينونة إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره؟ ألا ترون معي أن حياتنا كلها متوافقة على اختبار الرب للتعرُّف عليه، ونوال حق الوجود في حضرته، وسؤاله عن كل ما نحتاج إليه بضمير صالح غير مرتاب؟

لقد تعوَّدنا أن نسمع كلمة "الاختبار الروحي" بفتور وكأنها أمر يتعلق بالقديسين الذين رحلوا؛ ولكن ما أود أن أؤكده لكم أنه يستحيل قبول المسيح إذا لم نتعرف عليه، وذلك من خلال تجربتنا الخاصة على أبسط مستوى: قراءة، صلاة، سؤال بضمير صالح... إنها دعوة صالحة للملء!

كل إنسان مخلوق للحياة مع الله:

على إني أعود فأكرر: إن الإنسان لا يطلب الرب في الكلمة أو الصلاة أو السؤال من ذاته، وكأنه يلقي بنفسه في عالم غير عالمه أو في هوَّة مجهولة لا يدري ما سيصير إليه – حاشا – «فالله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا...» (في١٣:٢)، الإنسان مخلوق للحياة مع الله: [يا الله العظيم الأبدي الذي خلق الإنسان للخلود] (الترجمة الصحيحة لكلمة "على غير فساد" في القداس القبطي). الإنسان مخلوق يشتهي الخلود، والحياة الأبدية في صميم طبيعته، ويتوق للتعرُّف على الأبدي والخالد المطلق. الإنسان مخلوق على صورة الله، **فهو متجه دائماً تجاه الله**: «قُلْتَ اطلبوا وجهي. وجهك يارب أطلب» (مز٨:٢٧).

والاتجاه نحو الله، تُرجم في إنجيل يوحنا: «والكلمة كان **عند الله**» (يو١:١)، أي أن **الاتجاه** نحو الله هو عربون الوجود الدائم في حضرته، بمعنى مخفف يتناسب مع بشريتنا التوَّاقة للحياة مع الله.

إذن، الاختبار الروحي حقيقة أساسية في علاقتنا بالله، فيه ندرك موقعنا تماماً منه، وهو ليس سعياً مشكوكاً فيه من جانبنا، بل هو دعوة إلهية مغروسة في طبيعتنا ومضمونٌ استجابتها بوعد. أسأل الله الذي جَبَلنا لكي نوجد دائماً عنده أن لا يحرمنا جميعاً من تذوُّق حضرته التي فيها حياتنا وكل شيء – كما علمنا الآن – ليس في هذا الدهر فقط بل وفي الآتي. وهو، من جهته، تهيَّأ لتكميل حاجتنا هذه بكل عظمة واقتدار وسرور: «**دُفع إليَّ كل سلطان** في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم» (متى١٨:٢٨،١٩).

صلاة

– يارب أن شوقنا إليك يضطرم في قلبنا، من يطفئ هيبنا إلا رؤياك، فاسمح يارب وأعطِنا نعمة البصيرة المفتوحة لنراك ونخبّر بفضل نعمتك.

❖❖❖

إقبلوا محبتي وصلوا من أجلي،والإله القادر على كل شيء، الرب يسوع، الذي يجمعنا الآن هنا لنمارس عربون حياتنا معه، يجمعنا هناك حيث سيكتمل مجمعنا مع ربوات قديسيه لنكمل حياة الأبد.

العالم ومسئوليتنا العظمى

قصدت أن يكون العنوان ملخصاً لهذه الرسالة.

العالم المادي هو ذاته عالم الروح بالإنسان الروحي الموجود فيه:

إنه عالم واحد مادي المنظر والمظهر، وهو ذاته عالم الروح، لأنه بوجود الإنسان فيه، وهو الحامل لصورة الله والمتجه نحو وجه الله؛ يأخذ العالم بواسطته وفينا بُعداً ثانياً فوق المادة ويتجاوزها. فعالم الروح هو في الإنسان القائم في هذا العالم وليس خارجه.

ولكن أيّ إنسان؟

الإنسان الذي استقبل روح الله فيه، فاستراح داخله وسكنه وصنع فيه منزلاً.

السماء الروحية داخلكم:

ثم ينبغي أن نعلم أن السماء، أيها الأحباء، هي في قلوبكم، السماء الروحية؛ وليست هي فوق رؤوسكم، أقصد السماء الروحية «ها ملكوت الله داخلكم» (لو٢١:١٧)؛ هي تفوق العقل لأنها داخلةٌ في مجال الله، وفي نفس الوقت مفتوحة على أعماقنا؛ ولكن أُعطيَ للإنسان أن يحتويها في عقله وقلبه، وهي تُستعلن بالعين الروحية وليس بالعين المادية، حتى إنك إذا أردتَ أن ترى سماء الروح لعالم الروح غمِّض عينيك وافتح قلبك. هذه الحقيقة هامة جداً لأنها مفتاح التعرُّف على الدخول الأمين إلى عالم الروح ودليلُنا للتعرُّف على الروح القدس غير المحوي.

فلا تنتظروا أن تخرجوا عن أنفسكم لتروا السماء، أو يتغير لكم شيء لتدخلوا عالم الروح، سوى أن تكفُّوا عن "النظر" إلى عالم المادة حتى يُستعلن لكم عالم الروح؛ وأقصد "بالنظر" الانشغال الحسِّي بالعالم المنظور.

فعالم الروح والله داخل قلب الإنسان وليس خارجه، والتلاقي حاضر في كل لحظة: «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت٢٨:٢٠).

فنحن على ميعاد مع الله داخلنا للرؤيا، والتقابل الروحي، والمتعة الأبدية في كل لحظة: «ها أنا واقف على الباب وأقرع» (رؤ٣:٢٠)؛ والمشيئة الحرة هذه في الإنسان هي المنفذ الوحيد: «إن سمع أحد صوتي وفتح» (رؤ٣:٢٠)، الموصِّل للحضرة الإلهية الفائقة المتعة والفرح: «أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي» (رؤ٣:٢٠) (الوليمة).

من داخل السماء الروحية في أعماقنا، يُستعلن الله العامل في الخليقة:

ومن داخل عرش الله في قلوبنا نرى وجه يسوع المشرق "أُظهر له ذاتي"؛ ونرى عالم الروح والروحيين: «جاء الرب في ربوات قديسيه» (رسالة يهوذا ١٤)؛ وتُستعلن يد الله العاملة في الخليقة وكلمته المدبِّرة لعالم المخلوقات. وبدون أن ندرك هذه الحقائق يتعذر علينا فهم سفر التكوين. فالكون لا يمكن أن يُستعلن أو يتجلى للإنسان خارج الحضرة الإلهية، بل ويتعذر قبول متناقضات العالم الحاصلة أمام ذهننا: متناقضات الفرح، والألم، والحنان، والقسوة، والعناية الإلهية الفائقة تجاه البعض، والإهمال والرفض الكلي الظاهري للبعض الآخر. أقول إن الحل الوحيد والرد المريح لهذه المتناقضات لا نحصل عليه خارج نفوسنا، ولكن حينما نتطلع فيها بعمق الروح، نرى هذه المتناقضات متصالحة

ومؤتلفة في مسار حياتنا، كصورة مصغَّرة لِمَا يحدث في الكون.

فكم من أيام جُزناها في أحزان وآلام ومرارة ضاغطة، وكم من أيام جُزناها في بهجة وفرح ومسرة فائقة، ولا نزال نواجه هذا التناقض بصبر شاكر وترقُّب شاكر أيضاً كل يوم؛ ونكاد نحس **بتيار الصلح الإلهي في شخص يسوع المصالِح الأعظم** يَسْري في أعماقنا، يشدد ما ضعف من الإرادة ويُحيي موات الأمل ويجدد شباب الروح.

تيار الصلح الإلهي داخلنا يسري أيضاً في الكون ليصالح المتناقضات:

هذا التيار هو هو نفسه سرُّ قيام هذا الكون؛ فبقدر ما يسري فينا ليصالح المتناقضات، هكذا ومن خلالنا، يَسري أيضاً في الكون لتعديل مساره نحو القصد المنشود. إن الله «حتَّم بالأوقات المعينة وبحدودِ مسكنهم» (أع١٧:٢٦). وهل نحن الرهبان، الذين يتَّقون الله بخوف ورعدة، أكثر من عامل روحي فعَّالٍ وحيٍّ يعمل خفيّاً وظاهراً داخل العالم لإعادة توازن انحراف فئات أخرى من الناس في تيار عدم التقوى والاستهتار؟

أنظروا مقدار ما يعلِّقه الله علينا من رجاء في إصلاح وجه الدنيا الذي شوهته شهوة الفئات الشاردة! كم أتمنى أن نُصلحَ معاً المفهوم الخاطئ أن العالم مفصول عنا أو نحن مفصولون عنه، نسير على هوانا وكأننا لن نحاسَب في النهاية عن هذا العالم الذي وُضع في ذمتنا؟ متى نعرف أننا إنما تكرسنا لحساب العالم وليس لحساب أنفسنا «أنتم نور العالم» (مت٥:١٤)! «أنتم ملح الأرض» (مت٥:١٣)!؟ ومتى نعرف أن العالم في ضعفه وهوانه إنما يستغيث بنا؟ فهلاَّ سمعْنا صوت استغاثته وأجبنا: «لأجلهم أقدِّس أنا ذاتي» (يو١٧:١٩).

وبينما نحن نجاهد بكل الجهد لنتَّقي الله، وكأنما نريد أن نخلص بأنفسنا، إذا بخشيتنا هذه وخضوعنا وعبوديتنا (التي هي هبة من عنده) – تُحسب لحساب الآخرين لكي لا تهلك المدينة بسبب غياب أتقيائها «عسى أن يوجد هناك عشرة ... لا أُهلكُ من أجل العشرة» (تك١٨:٢٢)

احتياج العالم لمن يصلونَ عنه:

والعالم لم يكن في أي يوم مضى في حاجة ماسَّة لأتقياء أمناء يصلونَ ويبتهلون عنه مثل هذه الأيام. العالم مريض مطروح ينزف، ينزف من مخزون صلوات أتقيائه وقديسيه، ورصيدُه قد نضب. فإذا لم نتَّقِ الله ونتغير عن شكلنا بخوف وتقوى وابتهال لإنقاذ نزيفه القاتل، وكأنها عملية نقل دم للعالم النازف، فإننا سنعاين أمامنا وفي أنفسنا احتضاره النهائي.

ويذكِّرنا ذلك بقول الرب: «متى جاء ابن الإنسان أَلعلَّه يجد الإيمان على الأرض» (لو١٨:٨). أُنظروا حزن المسيح وهو يقول هذا القول، وكأنه يرى هذه الأيام التي يُداس فيها دمه! ثم انظروا وتفهَّموا لمن يلقي هذا السؤال الحزين وعلى من يُسْنِد هذه المسئولية العظمى، مسئولية حفظ الإيمان، الذي سلَّمه مرة للقديسين؟! إلى هنا يقف القلم مني. أنا مرتعب ومرتعد، وأحس بكلمات المسيح ترنُّ في أعماقي وتُرجفني، لأني لم أكن في حياتي الماضية على مستوى هذه المهمة العظمى والخطيرة... هل أنتم سامعون؟

وإن كنتم سامعين، فهل تجاهدون في الصلاة من أجل هذا الجيل المشتت الذي تاه عن مقصده؟

المحبة الباذلة السخية للآخرين

هي الدواء المنشود للعالم المريض:

ولكن اعلموا جيداً أن كل تضحية راضية وبذل سخي ومحبة بلا مقابل تُقدَّم للآخرين، هي الدواء المنشود للعالم المريض المكدود. آه من المحبة الهادئة الوديعة التي تُشعُّ من القلوب والوجوه التقية، كم هي تعمل في صمت بقوة سرية كنقل الدم لمريض نازف يواجه خطر الموت! بهذا يحيا العالم ويجدد شبابه، وبهذا نشترك دون أن ندري في الحياة الأبدية التي هي العِوَض القائم الدائم عن كل بذل المحبة وسخاء العطاء ودفء العطف نحو الضعفاء والحزانى والبائسين، ولكن ليس عن عاطفة عابرة، وإنما بدافع استرضاء وجه المسيح: «بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي قد فعلتم» (مت٢٥:٤٠).

قوة الشفاعة المطلوبة للعالم تكمن في تغيير القلب قبل مدِّ اليد:

ولكن رُبَّ واحد من الرهبان يسألني: وأين أجد هذا الضعيف والبائس في هذه البرية؟ والجواب على هذا: إن التغيير الذي يتطلبه الرب منا هو في القلب قبل أن يكون في عمل اليد، فاليد الممدودة بالعطاء لا وزن لها إذا لم يكن في القلب المصدرُ والدافعُ الهادئُ والصادق، فإذا امتلأ القلب فاض السخاء على الموجود وغير الموجود؛ واندفع تيار المحبة تحمله يد المسيح ليشفي به قلوباً أُخَراً في أقصى الدنيا لا نراها ولا نسمع عنها!

وهل كان العشرة الأشخاص الذي طلبتهم محكمة قضاء الله المرفوعة ضد سدوم وعمورة ليكونوا شرطاً للإعفاء عن المدينتين، هل كان لزاماً عليهم (أي على العشرة) أن يعرفوا أهل هاتين المدينتين؟ أو أن يمارسوا العطاء والسخاء لجميع الناس؟ إن كل ما كان يطلبه الله هو

هذا: «إن وَجَدْتُ في سدوم... عشرة أبرار في المدينة فإني أَصفَحُ عن المكان كله من أجلهم» (تك١٨: ٢٦،٣٢)، أي أن شرط إعفاء عالم سدوم وعمورة ينحصر في تقوى عشرة من الرجال أو النساء يعيشون بخوف الله! وكأنما قوة الشفاعة للعالم بأسره تنحصر في مجال القوة التي تنبعث من نفوس يختارهم الله ليكونوا القدوة، وليس القوة التي تنبعث من اللسان أو اليد.

ما أخطر وما أجلَّ إنساناً يحيا في صمت؛ ويجتهد؛ ويصلي بسكون وهدوء؛ ويرفع يديه؛ ويحني ركبتيه؛ والباب مغلقٌ لا يراه أحد.

❖❖❖

في الختام أبعث بأرقِّ مشاعر الود والاعتراف بفضل صلواتكم عني. واقبلوا محبتي في المسيح.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

أنا والروح القدس

الروح ضد الجسد، والجسد ضد الروح

أنا إنسان روحي، إذا وقفتُ وصلَّيتُ صلاة قوية وحارة.

أما إذا كانت صلاتي ميّتة، فماذا أكون سوى إنسان بلا روح، أو أن روحي في شبه حالة إغماء، أو نائمة نوماً عميقاً لا يعرف اليقظة؟

الصلاة هنا محكٌ لتصنيف الإنسان، ولتحديد تبعيَّته للروح أو الجسد، ومع غياب حالة الصلاة بالروح، تنحدر النفس إلى أفكار وحركات وانفعالات الغرائز السفلى، حيث يتضح الخط الفاصل بين الروحي والطبيعي. هنا تميل النفس ناحية الغرائز السفلى ولا تقوى على صدِّ نبضاتها، بل ولا تشعر بالكراهية نحوها؛ عكس الروحاني الذي فوق أنه يصلي، فهو لا ينفعل ولا يستجيب بل ويتكرَّه تصورات وإلحاحات الغرائز السفلى.

الحرية، عند الإنسان الجسدي وعند الإنسان الروحي:

كذلك ففي الإنسان الجسدي تبدو النفس وكأنها ليست حرة أو بالحري لا تعيش منسجمة في وحدة مع الجسد، بل إن الجسد ينفرد ليسود ويأمر ويستبد بالنفس التي تنحصر وكأنها جزء خلفي ثانوي متصل بالجسد، تزحف وراء قيادته بلا حرارة ولا حرية ولا إحساس. بعكس الإنسان الروحي الذي تنبري فيه النفس لتُقنع الجسد بالطاعة ثم الانسجام الكلي، حيث يصير الجسد متحداً حقاً بالنفس والنفس بالجسد في وثاق تام وأُلفة، كأنهما واحد، فالروح تنطلق في مجالها،

والجسد يستجيب لها سواء في صلاة أو تأمل أو أعمال عبادة أو تقوى أو بذل المحبة أو السهر الطويل!

الروح القدس يصالح الجسد مع النفس لدي الإنسان الروحي:

وحدانية النفس مع الجسد هي رأس مال الإنسان الروحي وبرهان حرية الإنسان، حيث يقف الإنسان موقف الاكتمال الذاتي، ويشعر أنه كلٌّ غير منقسم على نفسه، وتكون إرادته ومسرة نفسه كلاهما يهدفان دائماً نحو هدف واحد غير منقسم، هدف نبيل وسام في ملء رضا الروح. الروح هنا تعيش مع الجسد والنفس ككل غير متجزئ. هذا أعظم عمل يقوم به الإنسان في حياته، وهو بعينه مصدر الفرح الذي لا يُنزع والبهجة التي لا توصف.

والعامل المُصالح الذي يُؤلِّف بين النفس والجسد لحساب الروح، هو الروح القدس نفسه باعتباره أعظم مُصالح بحسب وظيفته السامية التي ارتأى المسيح أن يهبها للإنسان. فكما صالح المسيح بذبيحة نفسه السمائيين مع الأرضيين، هكذا يصنع للإنسان، يصالح له النفس مع الجسد.

بغضة الفساد والنجاسة، ومصالحة الجسد مع النفس:

ومن طبيعة الروح القدس بغضة الفساد والنجاسة وكل الأعمال الجسدية المنحطَّة، فهو المنصوص عنه في الآية أن: «الجسد (المائل نحو الفساد) يشتهي ضد الروح، والروح ضد الجسد، وهذان يقاوم أحدهما الآخر» (غل١٧:٥)، المقصود من الروح في هذه الآية حسب ترجمة النص هو **الروح القدس**، غير أن روح الإنسان، التي تختار أن تُبقي الله في معرفتها وترتضي بسكنى الروح القدس وتشهد للمسيح، تأخذ من

طبيعة الروح القدس وتصير مثله فتبغض أعمال الجسد المائلة نحو الفساد.

يا لرحمة الله التي لا توصف! فنحن من أنفسنا أبناء التراب، أبناء الموت والفساد والخطية، ولكن بميلنا ناحية الروح القدس وبحلول الرب فينا تتحول طبيعتنا وتبدأ تأخذ من طبيعة الروح القدس. هنا يقع مفهوم الميلاد الثاني والاغتسال وتجديد الطبيعة، وبالتالي التحوُّل من التدبير الشمالي إلى التدبير اليميني. هنا كل ما للطبيعة الجديدة مأخوذ من صفات الروح القدس التي من أهمها بغضة أعمال الجسد المنحصرة في النجاسة والفساد والخطايا المميتة.

أي أنه بحلول الروح القدس يبدأ الإنسان يبغض أعمال الفساد والنجاسة التي للجسد، وقليلاً قليلاً يُقنع الروح القدس الجسد ليخضع لإيحاءات النعمة ويتصالح مع روح الإنسان التي بطبيعتها تميل نحو الله مصدر خلقتها وغاية رحلتها وأساس بهجتها.

ويلذ لي، أيها الأحباء، أن أكرر القول أن **مسرة المسيح** الأولى والعظمى التي دفعته للصليب كانت كما هو مكتوب: «**من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي**» (عب٢:١٢)، هنا مسرة المسيح العظمى التي من أجلها احتمل الصليب كانت مصالحة الإنسان بالله، التي تبدأ حتماً وبصورة إلزامية بتوحيد أعمال ومقاصد وأهداف النفس والجسد مع الروح المودعة من الله داخل طبيعة الإنسان!

عمل الروح القدس في ضمير الإنسان، في حالة ميله للجسد:

ولا يمكن، أيها الأحباء، أن نعطي عذراً لأنفسنا إذا نحن مِلْنا ناحية التدبير الشمالي، أي ناحية الغرائز الطبيعية السفلى، وخضعنا لها

برضا النفس، لأن طبيعة الروح داخل ضمير الإنسان تشتكي محتجة. بالإضافة إلى مفاعيل الروح القدس الغاضبة التي توقع الإنسان تحت إحساس العقاب والدينونة، لأن مسرة الجسد بغرائزه السفلى يقابلها غضب الروح القدس الذي يعلنه للروح، وترزح النفس تحت توبيخه المريع.

إذن، لا عذر لنا إذا نحن لَهَوْنا بالجسد وأحزنَّا الروح، لأن الروح القدس أقوى من كل العوامل الخارجية والغرائز الداخلية، وهو كفيل بأن ينتشل النفس والجسد من حمأة الطين ويغسل ويُطهِّر ويُلبِس ملابس بيضاء للذين يذعنون لإيحاءاته الواضحة المستمرة.

إذن، لا تُعفوا أنفسكم من التوبيخ ولا تهملوا أصوات الإنذار والتهديد لئلا تقعوا تحت غضب الروح. وكلٌّ واحد منا يحمل مسئولية نفسه تجاه إنذارات الله.

كما أنه ليس عذر لإنسان قط إذا هو تماحك لينسب هذه الخطايا للجسد باعتبار أنها راجعة إلى طبيعة خاصة أو توارثٍ موروثٍ لا يقوى عليه، فالمسيح غيَّر الطبيعة، والروح القدس قطع أوصال الخيوط التي تربطنا بالأسلاف عن طريق الميراث، فلا عذر لنا على الإطلاق إذا أخطأنا باختيارنا.

وسيشعر بذلك كل إنسان يستغيث بالروح، إذ سيدرك حينئذ أن قوة الروح القدس أقوى من كل العوامل الطبيعية مجتمعة، وهو كفيل بأن يهبنا صفات جديدة ومراكز صفات (genes) تنحدر إلينا من السماء وليس من المقابر الأرضية، حسب نصّ التسبحة: "هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له، فلنسبحه ونمجده ونزيده علواً".

(التسبحة السنوية - تذاكية الجمعة)

عمل الروح القدس في إلغاء سطوة الصفات الموروثة:

إن العلماء يهوِّلون من شأن مراكز الصفات الموروثة، وكيف أنها تتحكم ليس في الجسد وحسب بل وكل حركات النفس وانفعالاتها، بل ونشاط الذهن أيضاً. هذا بالنسبة لنا ليس صحيحاً. نحن لا ننكر أهمية هذه المراكز وخطورتها، ولكنها في ضوء الحق الإلهي هذه لا تمثّل أكثر من أصغر جزء سطحي غير ذي بال من تكوين طبيعة الإنسان الجديدة ونفسيته، حيث يطغى الروح القدس داخل الإنسان - وباتفاق مع روح الإنسان ونفسه - فيلغي سطوة الصفات التي لا تتوافق مع متطلبات الحياة الروحية أو التي تُغضب الله.

هذا التحكُّم شبه المنتصر، وهذه القدرة المتفوِّقة هي صفة الذات الجديدة المتصالحة مع الله والتي تعلن بحركاتها وسكناتها عن مصدر النعمة التي فيها: «الروح القدس يشهد لي (بكم) وتشهدون أنتم أيضاً (به)» (يو١٥:٢٧). وهكذا ينسحب الإنسان الطبيعي العتيق بغرائزه ليعطي للإنسان الروحي الجديد النمو والامتداد ليحيا ويسعد ويشهد! «تكونون لي شهوداً» (أع١:٨).

ولكن تظل الصفات العتيقة والغرائز الطبيعية تحاول الظهور لاستعادة سلطانها وسطوتها بصورة دائمة لا تكف: «فإني أسرُّ بناموس الله بحسب الإنسان الباطن، ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني **ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي**» (رو٧:٢٢،٢٣).

ثم يعود بولس الرسول ويزكِّي عمل الروح القدس فينا الذي وهبه لنا المسيح لينتصر للروح ضد الجسد ليُبرئ الإنسان ويبرِّره: «إذن لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع، السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح، لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع **قد أعتقني من ناموس الخطية والموت**» (رو٨:١،٢). وهكذا يظل الإنسان

يحارب طالما هو متشبث بالذهن العتيق إلى أن يدخل إلى ذهن متجدد: «تغيروا عن شكلكم **بتجديد أذهانكم**» (رو٢:١٢)، وحينئذ تسقط قيود النفس المسماة بعوامل الوراثة والعادة، ويدخل ذهن الإنسان وروحه ونفسه إلى حرية مجد أولاد الله، ويحس بالتبرير المجاني الذي يضيء ذهنه ويشدِّد روحه ويعيد صياغة نفسه ويُهدي جسده في طريق القداسة والتقوى.

خطورة الغفلة وإهمال الخلاص:

ولكن لكي أكون واضحاً وصريحاً معكم بحسب معرفة الكلمة وفي ضوء الإنجيل، أقول إن طبائعنا العتيقة وأفكارنا وتصورات الماضي لا يمكن أن تمحى من الذهن، كما يستحيل على الغرائز أن تنطفئ تماماً، ولكنها تعمل وتظل تعمل جاهدة حتى إلى عتبة الشعور والواقع، وحينئذ بزجرة واحدة شجاعة تهبط إلى القاع مرة أخرى لتختبئ في اللاشعور تنتظر المناسبة تلو المناسبة حتى إلى باب القبر!

ولكن إذا غفلنا عن أنفسنا وأهملنا خلاصنا وارتخت أيدينا عن الإمساك بالحياة الأبدية، وتركنا أقدامنا تنزلق وراء شهوات الجسد من لذة طعام إلى كبرياء، إلى شهوة النجاسة، حينئذ تنطلق النفس العتيقة، يؤازرها الجسد بسطوة غرائزه، لتدخل إلى دائرة العمل والنشاط بعنف، فترتد الروح إلى الوراء، وتنطفئ جذوة الروح القدس من داخل الإنسان، وتعود الخنزيرة إلى حمأة الخطيئة، ويسيطر قانون اللحم، وتخيِّم الجهالة على روح الإنسان!

لزوم الإرادة الحرة المؤتلفة مع الروح القدس:

أي أن غرائزنا العتيقة ستظل في المتقدمين منا محبوسة فقط في قفص الإرادة تحت حراسة الروح القدس، ولكن لن تموت. وعلينا نحن أن نسهر على مكاسبنا الروحية الثمينة، وفي نفس الوقت نظل في يقظة

الروح لزجر كل حركة تأتي من طبيعتنا الحيوانية. ليس معنى هذا أننا نعيش في ثنائية مع جسدنا العتيق. ولكن اتحادنا بالروح القدس، الذي وهب لنا طبيعة جديدة، ووحَّد بين نفوسنا وأرواحنا مع أجسادنا التي سُرَّ الروح القدس أن يسكن فيها، هذا الاتحاد السري والفائق موضوع وبصفة مستمرة **تحت سيطرة الإرادة الحرة المؤتلفة مع الروح القدس**. فوحدتنا مع الروح القدس هي وحدة حُرَّة وليست إجبارية. وإرادتنا لها أن تُبقي عليها أو لا تُبقي، ولكنها ستُبقي بنعمة الله.

❖❖❖

ختاماً - أبعث لكم بأرق مشاعر المحبة راجياً أن يرحمنا الله ويحفظنا في حماية الروح القدس أطهاراً إلى النفس الأخير، ليس بجدارتنا ولكن بنعمته، لأننا أضعف من أن نعيش ساعة واحدة في طهارة الروح أو الجسد، ولكننا برحمته ونعمته المجانية نعيش إلى الأبد في ظل قداسة ربنا يسوع المسيح.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

أنا والخطيئة

ثنائية الحياة:

يلزم بادئ ذي بدء أن نعلم أن النفس البشرية ذات أوجه عدة، فهي قد تتعامل مع الخير والصلاح وتبدو أنها من أهله، وفي ذات الوقت تكون متعاهدة مع الخطيئة تعاشرها في الخفاء وليس من ينظر أو يحاسب.

ومظهر هذه الثنائية يبدو واضحاً في التحفظ الشديد في الخارج، والتمسك بالحياة الغريزية في الداخل. وتنكشف هذه الثنائية في السلوك والمعاملة، وقد يتوه الإنسان وسط الناس ولا يدري به أحد، ولكنه مكشوف أمام نفسه والله، إذ يحس الإنسان أنه يملك جسد الخطية وليس جسد الحياة الذي سوف يتجلى في مجد المسيح: «الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده» (في٣:٢١).

وليس ذلك فقط، بل إن الإنسان الحساس يشعر أن خطاياه تسبقه أينما سار، ويبدأ يَكْرَه نفسه كُرْهَهُ للخطية ذاتها. وهذه علامة أن النفس تصرخ وتود التغيير وتصبو إلى توبة صادقة. ولكن من كثرة معاشرة الخطيئة ترتد النفس متحسرة متوجعة، وكأنها متسربلة بثوب الخطيئة الأسود، أو كأن الخطيئة تحوي النفس برُمَّتها.

مظاهر تملُّك الخطية وسيادتها:

العيب هنا ينصبُّ على بلادة الإنسان ورخاوته التي سهَّلت للخطيئة أن تتملك وتتسيَّد. لذلك:

١- فبلادة الضمير، عند الإنسان، وكسلُه وتراخيه تُحسب له خطيئة سواء بسواء، لأن الكسل والتراخي يقفان عقبة ضد تدخُّل الله وحاجزاً مانعاً لانسكاب روح التوبة.

٢- التراضي التي تتعهَّد به النفس مع الشرير، وكأنه "عقد زيجة"، يجعل النفس تقتنع اقتناعاً شيطانياً كاذباً أنها لا تقوى على التخلص من الخطية أو الماضي الحزين برُمَّته.

هذه مصيبة من المصائب التي يُصاب بها الإنسان، وهي أخطر ضلالة تصيب العقل والضمير، فتغلق على الإنسان في اليأس؛ وفي نفس الوقت تعطيه القناعة بمعاشرة الخطيئة بلا مانع.

٣- منظر العنف الوحشي والغضب الذي يصيب الخاطئ إذا مُسَّت كرامته، حيث تُرديه الخطيئة إلى أسفل نحو وحشية الإنسان البدائي (لأن الخطيئة صفة وحشية على مستوى اللعنة التي تُفقد الإنسان اتزانه)، لأن هذا العنف يُعرِّيه من مظاهر المدنية ودماثة الخلق، بل ويُجرِّده من كل صفات الإنسانية؛ ويحصره في دائرة الغضب الذي يفسد كل كيانه.

هنا الإنسان العتيق يظهر بوجهه القبيح ليتباهى بقوته وقدرته ومجده الكاذب، وتقفز صفاته الوحشية لتتملك على الشعور واللاشعور معاً، فيطيش عقل الإنسان ولا يعرف لماذا حدث هذا كله. ولكن هي الخطيئة الرابضة في القلب، لأن الخطيئة هي المجال الذي يعيش فيه الإنسان العتيق ليخرب كل مدخرات الإنسان ومواهبه. وبعد ثورته وهياجه يحس الإنسان، أو بالحري الإنسان العتيق، أنه استراح ونفَّث عن كبته وأعلن عن ذاته وسجَّل وجوده! ويا لفضيحة الروح ويا لحزن النفس عندما يعود الإنسان إلى صوابه!

غرامات الخطية وجهالات الماضي:

ولكن حتى في القديسين لا تُعْدَمُ الخطيئة الأولى وأيام الجهالة من أن تستعرض ذاتها من حين لحين، ولكن في المجال بين الشعور واللاشعور كرؤية شريط سينمائي داخلي تستعرض فيه الخطيئة كل مناظر القبح وكل الكلمات الفاحشة وكل الصور الماجنة المجنونة. والإنسان الروحي يئن ويرفض وينازع ويطرد ويطارد، بكل قوة وباستغاثة بالمسيح والروح والقديسين، لكي يكفَّ الشيطان عن كيده. ولكن هيهات! فالخطيئة التي حكمت الإنسان مرة لابد أن تنتقم لنفسها. صحيح أن عذاب القديسين أمام هذه الهجمات المفاجئة لا يُطاق، ولكن لابد من دفع الغرامات عن جهالات الماضي. هي ولو أنها غرامات يائسة، إلا أنه إذا احتملها الصدِّيق، نال معونة ونعمة عوض التمزُّق الذي تعانيه النفس.

ما ألعن الخطيئة! إنها صبغة لا تفارق جسم الإنسان إلا بعد الاغتسال من الجسد جملة، حينما تنطلق النفس وحدها عارية من هذا الجسم المنكوب. نحن منذ الآن يلزم أن نبيع الجسد ونخلعه بالنيَّة، وذلك برفضنا المصمم والمعاند لكل شهواته السابقة. يلزم أن ندرِّبه كحصان جامح لكي يحترم عرش الله الذي يريد أن يرتاح في هيكل أجسادنا.

نعم، يتحتم أن نضع أمام شريط الخطايا منظر الخلاص الأبدي، وبهاء الثوب الأبيض وإكليل المجد المعدّ، حتى تنقشع صور الخطايا ولا تعود. كما يلزم أن نحفظ عن ظهر قلب أنه: إمَّا الخلاص، وإما الخطيئة.

ومستحيل أن نوفِّق بين الاثنين أو نجمعهما معاً، فالخطيئة موت، والخلاص خلاصٌ من الخطيئة، والخلاص حياة؛ ولا يمكن الجمع بين الموت والحياة: «أُشهد عليكم اليوم السماء والأرض، قد جعلتُ قدامك الحياة والموت، البركة واللعنة، فأخترْ الحياة لكي تحيا» (تث٣٠:١٩).

الخلاص وشقّاه السلبي والإيجابي:

إذن، الخطيئة ليست إجباراً ولا تسلُّطاً مُلزِماً، بل هي في دائرة **الاختيار الإرادي**، كذلك الخلاص الأبدي وهو هو الحياة الأبدية، فاخْتر الحياة لكي تحيا.

وانتبهوا جداً، فكلمة "الخلاص" لها شق سلبي وشق إيجابي. الشق السلبي يعني: "**أخلص من ماذا؟**"، والشق الإيجابي يعني: "**أخلص بهدف ماذا؟**" فالأولي تعني: **خلاصي من الخطيئة**، والثانية: **خلاصي للحياة الأبدية!** علماً بأن بقدر ما نكون مشدودين إلى خلف بقوة الخطيئة والجهالة، كذلك وبالأكثر والأفضل وفي نفس الوقت نكون منجذبين نحو المسيح بواسطة الآب: «لا يقدر أحدٌ أن يُقبل إليَّ إن لم يجتذبه الآب» (يو٦:٤٤).

فيا لنعيمنا! ويا لفرحنا! إذا كان الله هو الذي يجذبنا إلى ابنه. هذا معناه أن كل جذب الخطيئة إلى خلف نحو وحشيتنا الأولى مقدور عليه، والغلبة عليه في متناول أيدينا، إذا استغثنا جيداً بالذي يستطيع أن يخلِّص لميراث الحياة عنده. وفوق هذا، فنحن لنا سحابة من شهود تصلي من أجلنا، **لتخلِّصنا من براثن الخطيئة المستوحشة فينا**، وتدفعنا إلى ميراثنا الروحي المعدّ لنا: «إذ لنا **سحابة من الشهود** مقدار هذه محيطة بنا، لنطرحْ كلَّ ثقل **والخطية المحيطة بنا بسهولة ولْنحاضرْ ولْنركُض بالصبر في الجهاد** الموضوع أمامنا، ناظرين إلى رئيس الإيمان ومُكمِّله يسوع» (عب١:١٢،٢).

كُنه الخلاص ومصدره:

والخلاص من الخطيئة يعتمد على مقدار الاشتياق الملتهب والرجاء الحار والثقة الثابتة في مواعيد المسيح. وهو إمَّا يأتي بتدرج بطيء على

مستوى التعليم والتلقين؛ وإمَّا باندفاع واستعلان وتغيير سريع مُبهر. ولكن سيَّان! فلهذا وذاك نهاية واحدة وهي حضن المسيح، لنخدم اسم الخلاص ونكون أبناء النور.

والذين ذاقوا الخلاص يدركون كيف انصاعت الطباع الوحشية لتهذيب النعمة، وجلس الجسد المتنمِّر تحت أقدام الروح القدس بخضوع ووعي جديد.

وفي كلا الحالين، إن كان التغيير بطيئاً بالتعليم والتلقين والتهذيب المستمر، أو كان التغيير سريعاً مُبهراً، فالتغيير يتحتم أن يكون على أساس إعادة بناء النفس والذهن والضمير وكل الكيان الإنساني، أي لا يعتمد على مجرد حفظ معاني وجُمل وألفاظ يتلوها الإنسان، دون أن يكون مصدرها هو عمق الخبرة والرؤية والتجربة.

فالخلاص لا يعتمد على مدرِّس، أياً كان نوعه أو مهارته، ولكن يحتاج إلى حب وتلهُّف، وسماع مرهف، وإذعان لإيحاءات الروح القدس؛ وبعد ذلك يأتي دور التعليم والحفظ.

فالخطوة الأولى ندم، ثم توبة بدموع، وبعد ذلك يأتي تغيير اتجاه المسيرة من الشمال إلى اليمين، بكل ثقة ويقين، عن سمع ورؤيا وإحساس وفرح غامر، يُزيد اليقين يقيناً. علماً بأن الخطيئة تساوي الانغلاب، والخلاص يساوي الانتصار؛ الانغلاب للإنسان العتيق بغرائزه الوحشية، والانتصار على الجسد لحساب الروح والحياة الأبدية، لتنضح بالصلاح، والرفق، والمحبة، والتقوى، بعد الغضب والثورة والانفعالات المجنونة! وهكذا لا يعود العنف يخدم الخطيئة بل يخدم الخلاص، حيث يسمى "غيرة مقدسة" عوض "العنف الطائش".

فالآن، أيها الأحباء، قد أوضحتُ أمامكم، بكل صراحة، موقفنا من أنفسنا تجاه الخطيئة والله. فإمَّا نخدم غرائزنا؛ ونخضع لعنف طبيعتنا

الساقطة؛ ونستعبد ذواتنا للانفعالات الوحشية التي تثور بسبب أو غير سبب لتخرِّب مخزون مكتسباتنا الفكرية في الحياة الروحية؛ وإمَّا نستعبد غرائزنا وعنف طبيعتنا لخدمة الخلاص، وتسبيح النور، وتحويل مخزون المعرفة إلى تغيير جذري في طبيعتنا. عالمين أنه كلما كانت طبيعتنا شديدة وغرائزنا فائرة، كلما كان الخير والصلاح والحب والمجد المتحصِّل منها هائلاً بعد تحويلها إلى مُخطَّط للنعمة. من أجل هذا علَّمنا بطرس الرسول أن لا نذمَّ الطبيعة الأولى قط بل نعمل على تحويلها: «وأما أنا فقد أراني الله أن لا أقول عن إنسان ما إنه دنس أو نجس» (أع١٠:٢٨). وهكذا نُسرُّ ونفرح، مستبشرين أن كل ما فينا وُضع لكي يتحول لحساب المسيح الذي له المجد دائماً أبدياً آمين.

❖❖❖

وختاماً أبعث لكم بأرق مشاعر المحبة، متوسلاً لدى الله القدير أن لا يهدأ الروح القدس من أن يغيِّر طبائعنا جميعاً لتعمل لحساب مجد المسيح لنحيا معه ولا نموت، وأن تكون آذاننا صادقة في سماعها. آمين.

أنا وغرائزي

حياتي الغرائزية، بطاقاتها الطبيعية وما يتبعها من صفات وسلوك، يهمنا أن نطرحها للفحص بسبب قدرتها (كما سبق وأوضحنا في الرسالة السابقة) على التحكم في مسار الحياة الروحية، وتأثير هذه الغرائز على النشاط الذهني والنفسي بصورة خاصة.

والغرائز إذا عجزنا عن أن نضبطها، فهي تجرفنا نحو التدبير الشمالي، وعلامة ذلك أن تصرفات الشخص تتّسم بالسلبية في كل شيء. أما إذا وضعناها تحت الانضباط المتحكِّم، فإنها تصبح عاملاً يدفع إلى الإيجابيات في السلوك الروحي بصورة واضحة لا تخفى على أحد.

آثار ضبط الغرائز وتطويعها للروح:

فالغضب، مثلاً، إذا لم ينضبط ويُطوَّع لمشيئة الروح، فهو قادر أن يحطم علاقات الإنسان بالآخرين ويترك النفس ممزَّقة غارقة في بحر من النكد والندم والخسارة. أما إذا دخلت القوة الغضبية تحت ضبط الروح وسيادتها العاقلة والرزينة، فإنها تفقد صفتها الوحشية وتتحول هذه القوة الهوجاء إلى غيرة روحية متّقدة وحرارةٍ في الاندفاع نحو البذل، وجراءةٍ في الخدمة والحب بل وفي كل ميادين العمل الروحي.

هكذا، وبنفس القياس، تنكشف أمامنا كل الغرائز بمقدار أثرها الضار في وضعها الطبيعي الفجِّ غير المنضبط؛ وكيف تتحول جميعها، عندما تُضبط إلى خير غير محدود.

من هنا ندرك خطورة الاستهتار بالخضوع لغرائزنا الطبيعية، كما ندرك عظمة ونفع هذه الغرائز حينما تقع تحت الانضباط الروحي،

بالصلاة والإرادة والعمل. وهكذا يتحول كلُّ ما للشر بالإرادة إلى كل خير.

لذلك أصبح من المفيد أن نتتبع بعض هذه الغرائز الطبيعية التي لا تزال حية في أعماقنا؛ لأنها تُحسب بمثابة الجذور التي تتغذى عليها الأخلاق والسلوك والصفات عامة، والروحية منها بوجه خاص. أي أنها أصلٌ لكل إلحاح يلحُّ على النفس من جهة السلوك أو التغيير، والمنبعُ الذي تنطلق منه نبضات الحياة السلوكية برُمَّتها؛ وهي التي تتحكم في مدى نجاح الإنسان أو فشلِه، وعلى هذا يتوقف عملنا الروحي.

لذلك أصبح ضبط هذه الغرائز، من أصولها، عملية من أعظم العمليات التي يقوم بها الإنسان الروحي والمرشد الذي يقود!

وضبط هذه الغرائز يتوقف على عاملين:

الأول: داخل الإنسان؛

الثاني: خارج الإنسان.

الأول: وهو الإرادة المؤازَرة بالنعمة، مع طلبة من الله بلجاجة وبإرادة حرة واعية لخطورة الخطأ والصواب. هذه الإرادة كفيلة، بالصبر والصلاة، أن تَسْلِخَنا مما علق بجلدنا ولحمنا من هذه الغرائز، التي تغلغلت تركيبَنا الأخلاقي والمزاجي ككيٍّ النار.

أما العامل الثاني، فهو خارجي، يتوقف على البيئة والتربية. فالإنسان حرٌّ أن يختار الإخوة والرفقة الذين يدفعونه إلى الأمام؛ وحرٌّ أن يختار الأب أو المرشد الذي يشدُّه بقوة خارج ذاته ليضعه في ملء النور والحق والحرية.

هذان العاملان هما عماد الحياة الروحية التي أوقفنا حياتنا وهدف حياتنا عليها. علماً بأن الشخص هو صورة طبق الأصل من بيئته

وصورة محسَّنة للأب أو المرشد، لأنه ينبغي أن يكون الجيل اللاحق أفضل من الجيل السابق، لو كُنَّا مُنصفين: «أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم **أفضل!**» (يو١٠:١٠). ولكن يظل العبء الأعظم على الإنسان وحده وعلى سلطانه على إرادته ومدى قدرته في التحكم في غرائزه الوحشية.

وطبعاً لا يغيب الآن عن ذهنكم قول يعقوب الرسول: «إن كان أحد لا يعثُر في الكلام، فذاك رجل كامل **قادر أن يُلجم كل الجسد أيضاً**... هكذا اللسان أيضاً هو **عضو صغير ويفتخر متعظماً** (الكبرياء والكذب). هوذا نار قليلة أيَّ وقودٍ تحرق، **فاللسانُ نارٌ، عالم الإثم**. هكذا جُعل في أعضائنا **اللسان الذي يدنِّس الجسم كله** (الشتيمة والألفاظ البذيئة)؛ ويُضرم الكون (الخصام)؛ **ويُضرَمُ من جهنم** (حينما يُسلَّم للشيطان)» (يع٣:٢-٦).

أهمية الانتباه ومحاسبة النفس:

من أجل هذا انتبهوا إلى كلام الرسول، وضَعُوا في قلوبكم أن هذا الكلام موجَّهٌ لكل واحد فينا بلا استثناء، وأنا أوَّلُكُمْ. إن كنا نريد أن نصنع بيئة صالحة ونؤهَّل أن نكون أمة مقدسة وشعب اقتناء. ولينظر كلُّ واحد بتدقيق إلى تصرفاته ويحاسب نفسه بشدة ليزيح عن نفسه رواسب بيئاتٍ رديئةٍ أخرى، يكون قد عبر عليها، وسلبياتِ التعليم والعِشْرة الرديئة؛ ولْيَسهر بشدة قبالة أي خلل في السلوك حتى يؤهَّل للدعوة العليا التي دُعينا إليها.

وقد رأيت أن أطرح أمامكم **بعض الصفات العاجزة وأتتبعها معكم حتى جذورها**، كعيِّنة أجعلها تحت أنظاركم، لكي ترسموا خطاها في قطع دابر كل ما يشين سيرتكم المقدسة في السماويات.

صفة "الخوف":

وأبدأ هذه الصفات العاجزة **بالخوف**، لأنه استرعى انتباهي كيف وضعه الوحي الإلهي في أول قائمة الممنوعين من دخول ملكوت الله: «أما **الخائفون** وغيرُ المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعَبَدَةُ الأوثان وجميع الكذبة **فنصيبهم في البحيرة المتَّقدة**... الذي هو الموت الثاني.» (رؤ٢١:٨)

وهكذا يكون الخوف أخطر من كل الخطايا. والحقيقة إنه هو المتسبِّب فيها كلها بصورة ما. فالخوف من قول الحق يجعلنا نكذب، لعلنا لا نخسر شيئاً من كرامتنا أو أموالنا أو مراكزنا أو حتى خوفاً على حياتنا! والخوف على كرامتنا وسمعتنا، والخوف من الفضيحة والعار يجعلنا نخفي خطايانا. الخوف.. الخوف..

هكذا يبدو الخوف عثرة ثقيلة جداً في طريق النمو الروحي، وهو كفيلٌ أن يعرقل الإنسان عن المسير كلياً ويجعله لا يتحرك من مستواه لعشرات السنين بلا أمل ولا رجاء، حيث ينزع الإنسان بعد إحباطات كثيرة إلى الإستكانة والرضا بمرارة المر والظلمة المحيطة، مع أن النور والحرية رهن إرادته إذا هو خلع هذا الغلاف الوهمي المدعو "الخوف"، وألقاه تحت قدميه، وتقدَّم في حرية مجد أولاد الله معترفاً بخطاياه.

ذلك لأن الخوف إذا توطَّن في الإنسان، يربط الذات في قاعدة لا يمكن أن يتحرك منها، تتمركز الذات فيها وتختبئ وتُخفي كل عيوبها تحت مظلتها دون أيِّ سبب أو أية علة مقبولة، لأن الله وضع فينا الحرية والتغيير كعنصر أساسي في جِبْلَتِنا الروحية لنواجه به كل جمودٍ مهما كان مصدره أو دوافعه. علماً بأن الخوف في حد ذاته هو كذبة كبرى لا ينبغي أن تكون.

أنا، يا أحبائي، لستُ محلِّلاً نفسانياً، ولكني باعتباري إنساناً خاطئاً

مررتُ على كل مراحل الخطية، لا كمنغمسٍ فيها ولا في إحداها، ولكني انسلخت من بيئة إلى بيئة ومن قامة إلى أخرى والله حفظني ونجاني حتى هذا اليوم، فإني أدركت حيل العدو «لأننا لا نجهل أفكاره» (٢كو٢:١١)؛ وأدركت فخاخه المدعوة "خطايا" التي يطرحها تحت أرجلنا كل يوم بل كل ساعة، لعله يقبض على عَقِبنا كالحية التي تتعقب فريستها.

كم مرةً واجهتُ العدو وفخاخه وجزعتُ وصرختُ، والله نجاني! كم مرة أحاط بي العدو ليطفئ نور الله من قلبي ولكن الله نجاني! هكذا صارت درايتي بحيله. والآن أكلمكم من جعبة آلامي لأقول لكم: إن الخوف اللعين فخ يطرحه الشيطان ليصطاد به فرائسه، خاصة تلك التي تود الإسراع في المسير ليعرقلها.

الخوف وخطية الزنا:

والخوف هو أساس كل مصيبة، فالزنا الذي يبدو وكأنه خطيئة قائمة بذاتها ورذيلة مفزعة بحد ذاتها، تندهشون حينما تعلمون أن الزنا وليد الخوف، الخوف من الوحدة. فالزواج (الذي يُعتَبر الزنا تزييفاً له)، هو هروب من الوحدة والعزلة. لذلك يسهل عليكم الآن أن تدركوا أن الزنا وليدُ الخوف السلبي المترسّخ في اللاشعور، ولكنه ملفوف بالشهوة ومُزوَّق بالفجور. في حين أن الزواج هو إنهاء إيجابي لحالة الوحدة، وتشدُّ الشهوة أيضاً إنما في حدود الوصية.

الخوف وخطية الكذب:

والخوف السلبي يدفع الإنسان - لا شعورياً - ليس إلى الزنا فحسب، بل وإلى الكذب أيضاً. ومعلوم أن الكذب هو الخطية المعادلة للزنا تماماً في قدرتها على حرمان كثيرين من الدخول إلى ملكوت

السموات: «ولن يدخلها شيء دنس (الزنا)، ولا ما يصنع رجساً وكذباً، إلاّ المكتوبين في سفر حياة الخروف» (رؤ٢١:٢٧).

والكذب في جذوره الطبيعية الأولي، كان غريزة نافعة للإنسان - لأنه حاشا لله أن يخلق طبيعة تكون غريزتها الكذب - هذه الغريزة هي غريزة المراوغة والتمويه حتى يفلت الإنسان من الوحوش المفترسة بعد أن يراوغها ويضللها عنه وعن مخبئه. هذا هو الجذر الذي حوَّلته البيئة والمدنية إلى الكذب، وهكذا حوَّل الإنسان الغريزة الصالحة إلى صفة رذيلة.

والذي يدفع إلى الكذب عوامل كثيرة: الخوف على المال، وعلى الكرامة، وعلى السمعة، والخوف من العقاب. عوامل كثيرة، ولكن ألعنها جميعاً هو الخوف. والكذب بدافع صغر النفس أي الخوف من لا شيء، هذا الداء إذا أصاب النفس، عسيرٌ أن يغادرها إلاّ بعزيمة قوية توضع تحت يد مرشد حكيم؛ لأن خلعَها من النفس كخلع الظفر من اللحم؛ إذ لا بد عوض صغر النفس أن يحل الشعور بالثقة الثابتة بالله وعمل نعمته.

❖❖❖

لعلّي، أيها الأحباء، بهذه العجالة الصغيرة أكون قد أنرتُ أمامكم الطريق لتفحصوا ذواتكم وتنقّوا زَرْعكم، حتى يصير قمحُكم خبزاً للحياة بلا زوان. آمين.

أنا هو ما أعمل

أنا وغرائزي ومواهب التحويل

لابد أن نصحح أوضاعاً قديمة كان قد التجأ إليها العلماء، وقد نلتجئ نحن إليها للضرورة، لتقسيم قُوَى الإنسان: حينما نقسم الوعي إلى شعور ولاشعور، والذهن إلى ذكاء، والنفس إلى ضمير وروح، وتقسيمات أخرى كثيرة. ولكن الاتجاه الواقعي الذي يفرض نفسه هو أن الإنسان وحدة مركبة، أو بالحري **نشاطات مختلفة ولكن في وحدة واحدة**، وكل نشاط يظهر في موضعه. فإذا كنتُ أُصلّي بالروح وأسلك بالروح، فالذهن يكون روحانياً والضمير روحانياً، والقلب روحانياً، والنفس روحانية. ولكن إذا أهملتُ الصلاة كلية وأنكرتُ بالتالي عملها وأهميتها، فمهما تظاهرت بالروحانية، فأنا جسداني ذهناً وفكراً وذكاءً ونفساً وضميراً.

كذلك ربما لاحظتم في خطابي السالف التجائي إلى وصف السلوك الجسداني حسب الغرائز أنه تصرفٌ سُفلي وحشي بدائي، أما إذا كان التصرف والسلوك مؤدَّباً ودمث الأخلاق، قلنا إنه سلوك إنساني راقي. ولكن الحقيقة هنا إنه لا يوجد فاصل محدد بين طبيعة الغرائز السفلى وطبيعة التسامي بالغرائز إلى الوضع الأسمى. فالإنسان كلٌّ لا يتجزأ ولا يمكن أن يوجد فينا طبعٌ منفصلٌ أو متجزءٌ قائم بمفرده، أو بمعزل عن باقي الطبائع، الدنيء منها والراقي. ولكن سلوكي هو الذي يضعني في مستوى الطبيعة السفلى المنحطة أو يرفعني إلى مستوى الطبيعة المتسامية الراقية الدمثة.

إذن، "أنا هو ما أعمل"، وما أعمله يحكم عليَّ مَنْ أنا وماهية طبيعتي. وكل تقسيم لقُوى الإنسان وطبيعته هو، بعد ذلك، محضُ خيال لتسهيل مهمة التحليل النفسي ليس إلاّ.

الحقيقة الفريدة هي: ميل النفس الطبيعي إلى الله:

ولكن هنا حقيقة واحدة فريدة من نوعها يلزم أن نؤمن بها، وهي أن لنا نفساً تميل جداً أن تكون روحية، وتشتاق جداً جداً إلى الله مصدرها حينما تستيقظ. ويقظة النفس هي أعظم مرحلة من مراحل حياة الإنسان الذي يجاهد روحياً ويصلّي بإخلاص.

يقظة النفس تعطي الإنسان عيوناً جديدة داخلية، وآذاناً جديدة داخلية، وفكراً، ونوراً، وحِسّاً، وفرحاً داخلياً. إنها أعظم هبة ينالها الإنسان على الأرض.

حينما نبلغ إلى عتبة اليقظة الروحية تكون العلامة كالآتي: أنْ أبتدئ أتحرَّق شوقاً إلى الأفضل، ولكن الواقع يصدُّني لأني لا أصلي كما ينبغي، ولا أبذل ولا أحب كما ينبغي، ولكني أشتاق وأتحرَّق في داخلي إلى التغير، إلى التحول عما أنا فيه هنا: «الأجنّة دنت إلى المولد ولا قوة على الولادة» (إش٣:٣٧).

هذا هو موقف واقعي وطبيعي للغاية نمرُّ فيه، حيث تكون كل القُوى الطبيعية قد زحفت إلى الخارج، خارجَ الذات المسجونة فيها، ووقفت على عتبة اللامنظور تنادي خالقها بحرقة وتذلل من وراء ستار ظلمة الجسد والغرائز المتمردة.

الجسد يقف عائقاً أمام تطلعات النفس الروحانية:

أما الدرجة التي تلي ذلك، فهي أن الإنسان يكاد يمد يده ليقبض

على السماء، على المحبوب الغائب؛ ولكن ترتد اليد فارغة والنفس لاهثة. إلى هنا يكون العريس قد ارتضى أن يدخل إلى حَجَلَتِه (البيت المزيَّن للعروس)، ولكن العقبة واضحة مثل الشمس، إذ أن الجسدَ حيٌّ بعد، وغرائزه هائجة فعَّالة، وهي التي تطمس معالم النور، وتخفي وجه الحبيب، وتثبِّط الهمة المشتعلة، فيعود فارغاً ولكن بأمل العودة.

هنا تقف الروح منقسمة على ذاتها. فهي، من جهة، تريد أن تكون أعلى من الجسد وشهواته، ولكن من جهة أخرى تكون منجذبة عن رضاً، ولو أنه رضاً محزونٌ، منجذبة إلى الجسد الذي يشدُّها بقسوة، بحكم ما أُعطي من سلطان وسيادة وتلذُّذ. فالعادة واللذة وبقية الغرائز السفلى أخذت عليه مواقفَ وربطته برباطات "دليلة" (امرأة شمشون)، والجسد لا يريد أن يجرِّب انحيازه للروح مرة ليقطع أوصال هذه الرُبُط الوهمية. ويا لحزن الإنسان وبؤس منظره وهو ينظر إلى فوق ويلاطم كمن يلاطم في الهواء، لأنه يلاطم نفسه وهي غارقة في اللاشعور، كما بمخدر أفقدها الحسَّ الصحيح.

نظرة الروح حاضرة:

ولا أخفي عليكم، أيها الأحباء، أني أشرح صورة الكثير منكم الآن، وكأنكم واقفون أمامي، وأصف ما يعتمل داخلكم كأني داخلكم؛ ولكن أطمئنكم أنكم منظورون ومعروفون لدى الروح، وأن الرب قادمٌ ليحارب معكم. فإن حزنكم هو حزن المسيح الذي تولى على الصليب فكَّ رُبُط الإنسان، كلِّ إنسان، عندما ربطوه برُبُط الموت على صليب فقام وقطع الأوصال، فصارت كل أنواع الرُبُط وكأنها خرافة وهمية. فذراع المسيح اليمين تحت رأسكم لا يطالها سهم، وشماله تعانقكم حتى تطمئنوا أنكم في حضن الفادي القدير، لا يمسكم الشرير.

وشفاعة المسيح تؤازرنا:

هنا فقط أستطيع أن أدخل إلى صميم موضوع الرسالة: لأن هنا فقط ينجح الصراخ نحو التحول، لأن التغيير من حالة مبايعة الجسد المنغمس فيما يَسُرُّه ويُلِذُّه يكون قد واجه موقفاً جاداً حاسماً: أن النفس تتوق إلى المسيح، وكلُّ القوى والنشاط الداخلي للإنسان قد زحفت للخروج من مخبأ الجسد العطِن المتعفن، بينما هو على عتبة النور في مواجهة الله. هنا التحول يكون مسنوداً بذراع الرب حينما نطلبه بدموع ونتطلع إليه من وراء ستار الجسد بشهواته الميتة، **الستار الكثيف** الذي حجز عنا حقيقة لطف المسيح يكون آنئذ قد تهيأ أن ينشق من فوق إلى أسفل ليعلن استحقاقنا للدخول إلى قدس الأقداس بلا مانع، بسبب الذي يشفع فينا.

لاحظوا أنه في هذه الدرجة، غير مطلوب منا أن نحظى بالمعارف الجديدة والرؤى والإنعامات، ولكن هذه لحظة إلقاء الحَجَر الثقيل من على الكتف، هنا موقف جحد الجسد وليس اجتلاء مجد الروح، هنا مواجهة حاسمة للمصدر الذي كان يغذي جهلنا وحماقتنا. والمطلوب أن نجتزَّ هذه الجذور السامة التي كنا نتغذى عليها: الكتب والصور والسَّماعات والراديو والتصورات الشريرة والتضجيع على الفراش بلا ضرورة والتلذذ بمناظر الجسد والأعضاء وسماع الممنوعات، والإنصات إلى أصوات الشياطين وهي تستعرض ذاتها داخل القلب، والعودة إلى الشارع وأفكار الناس والضحك الفاجر الذي يحركه مناظر وسماعات القُبح والفجور، كل هذه وغيرها كانت أهلاً للندم والعذاب عندما تُستعلن صرامة الإنجيل على الذين أحبوا الإثم وتعاهدوا مع الباطل!

وصوت الله يأتي:

من وسط هذه الخرابات ومن وسط نعيق البوم، يأتي صوت الله: يا أولاد الحياة! اتركوا الموت للمائتين، وتعالوا إليَّ لكي تحيوا، اتركوا اللعنة لأصحابها، وتعالوا رِثُوا أنتم البركة مجاناً، استيقظوا يقظة شمشون، واقطعوا الرُبُط لأن قوتي فيكم ونعمتي لم تغادركم بعد.

هنا أول خطوة هي بدافع النعمة، فلا تخافوا. هنا التوبة مهداة من الله للذين يطلبون النجاة للحياة بدل الموت. هي مجاناً في جوهرها وإن كانت في مظهرها عودة إرادية. الله الذي يدعو، ومن يسمع ويستجيب ينال الوعد، الوعد قائم أميناً عَبْر كل الدهور.

إذا استجاب الإنسان للصوت الإلهي، يبدأ التحول، وهو فعلٌ من أفعال النعمة الثمينة حيث يتحول الإنسان بسهولة من خدمة الغرائز، إلى استخدامها لمجد الله، من العبودية لها، إلى استعبادها للارتفاع نحو النور واستنشاق عبيق الحياة الحرة، والغريزة نفسها تتحول إلى قوة لبناء الإنسان الجديد، إنسان المواهب المبنية على الغرائز المتحولة:

نماذج من تحوُّل الغرائز:

- حُبُّ العراك يتحول إلى حب الجهاد: كانت غريزة العراك تخدم حفظ الحياة والدفاع عن النفس. وإذ بها تتحول إلى قوة جهاد في حرب الأعداء غير المنظورين لنوال الحياة الأبدية وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس.

- حُبُّ الجري وراء الجنس الآخر، غريزة الجنس: تتسامى وتتسامى وتتحول إلى رغبة مُلحَّة للاتحاد، أي اتحاد النفس بالمسيح في زيجة فائقة على العقل: «خطبتكم لرجل واحد لأقدم عذراء عفيفة للمسيح» (٢كو١١:٢).

- حُبُّ الجري وراء القطيع، غريزة الاندماج مع الجماعة: تتحول إلى أشواق للانضمام إلى الكنيسة، جوقة المجد، إلى سحابة الشهود، إلى جماعة الأبرار والأرواح المكمَّلة في المجد وعشرة القديسين والملائكة، بإحساس طاغي يُنسي الإنسان كل أُلفة على الأرض.

ثم لن تكفيني الصفحات لكي أحكي لكم عن ٤٢ غريزة طبيعية في الإنسان، كيف تتحول إلى مواهب روحية لبناء الإنسان الجديد المخلوق حسب الله في القداسة والحق. إنها عملية تحوُّل عظمى تشترك فيها الإرادة بمسرة فائقة، حينما تنجح في واحدة فقط يأتي الباقي تباعاً، لأن الجذب الإلهي يفوق الشدَّ إلى الخلف: «إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله ولبستم الجديد» (كولوسي٣:٩،١٠).

ولكن لا يمكن أن نغفل ولا إلى لحظة واحدة أن هذه الغرائز عينها تهمد وتنام عندما تواجه جدِّية التحول والتغيير. وتنام ولكن لا تموت، وهي تظل نائمةً فاقدةً لقدرتها على تلويث الحياة، طالما نحن نستخدم المتحول منها بنشاط وجدية. فعِشْقُ المسيح إذا هدأ، استيقظت غريزة الجنس ووقفت على أرجلها تطلب ما لها. وهكذا علينا أن نوظِّف الغرائز المتحولة وننشطها بفرح وهمة وعزيمة لا تمل حتى يوم اللُّقيا مع وجه الحبيب، فيرتاح المثيل على المثيل، وتُزفُّ الروح المزيَّنة لعريسها، وتدخل راحتها إلى الأبد.

سر أعماقي

(دوافع السلوك)

مراجعة لما سبق:

لقد مهّدت كثيراً في مقالاتي السابقة لكي يَسْهُلَ علينا معرفة أنفسنا من الداخل، ويسهل علينا تتبُّع أي سلوك خاطئ حتى جذوره؛ ولكي لا نعيش مدفوعين بدوافع مجهولة تحرُكنا، بل ربما بسلوك خاطئ، فنقف صامتين أمام أخطائنا، نداقع عنها، وكأنما نحن نختم ونبصُم على صحة الشر والدوافع الشريرة التي تدفعنا، فنتعقد، وننسكت، بل ربما نفتخر بتعقيدنا وسلوكنا.

هذه نقيصة بالنسبة للإنسان العادي. أما بالنسبة للراهب فهذا يُحسب تقاعداً مُشيناً ومُهيناً لعظمة مذهب الرهبنة، الذي يقوم أصلاً وبادئ ذي بدءٍ على تصحيح النفس وتهذيب السلوك الإرادي وتقويم كل نقصٍ، كَفَنٍ وروح ونعمة.

❖❖❖

ونحن قد عرفنا، الآن، أن نشاط الغرائز إمَّا يُرْدِينَا أرضاً فنعيش كجسدانيين أو بالأحرى كبهائم، نخضع للغرائز ونتعبد لها؛ أو يدفعنا نشاط هذه الغرائز إلى فوق نحو الحياة الأفضل: «جئت ليكون لهم حياة ويكون لهم أفضل» (يو١٠:١٠)، فنعيش متألقين متأججين بالروح، عازفين عن كل شيء، ليس عن نقائص الدنيا وحسب بل وعن مُتَعِتها وملذاتها أيضاً، وبكل اعتزاز نسود على غريزتنا ونطوّعها لخدمة غيرة

صادقة وحرارة متجددة. لأني سبق وقلت إن الغرائز هي القوى الطبيعية التي تدفع الإنسان للتعبير عن ذاته، إنْ سلباً أو إيجاباً.

❖❖❖

وقد تيقنّا فيما سبق أن الغرائز مخلوقة أصلاً للخير العام للإنسان في وضعه البدائي الأول، ليحيا بها كحيوان أفضل، يقود الحيوانات الأخرى، ويسود عليها. وإن الانحراف في استخدام هذه الغرائز لا يشين طبيعتها ولا يشين خالقها؛ وإن تطويرها لتخدم الخير حسب أصول مَنْشَئِها أمرٌ سهلٌ، ولكن ليس فقط لتخدم الخير الطبيعي ولكن أيضاً لخدمة الصلاح والتقوى.

في أعماق الغريزة،
هناك الله مصوِّرٌ:

فهذه هي البذرة الديناميكية الأصيلة جداً، وإنْ سمحتم وقبلتم التعبير، فأقول إن في أعماق الغرائز هناك الله مُصوِّرٌ، لأننا على صورة الله خُلِقنا. فكل "جينة Gene" من كافة الجينات لكافة الخلايا يحمل ملامح المنبع واليد التي خلقته. إذن، حينما ننزل إلى القاع ونواجه انحطاط الغريزة في إلحاحها نحو ما هو ليس حقاً ولا حلالاً، فهذا دخيلٌ، ولا يزيد عن كونه تشويشاً استفرد به الشيطان في خلقتنا، لينسبَنا إلى نجاسته وإلى تبعيته المشينة كذباً وبهتاناً.

الصورة المزيَّفة وراء الدوافع الغريزية:

ربما تختبئ هذه الدوافع الغريزية ذات السلوك المرتبط بها، أقول تختبئ وراء صور دمثة وسلوك مهذب، ولكن بصورة مزيَّفة يربض خلفها وحش متنمر ينتهز الفرص ليعبِّر عن نفسه. هنا الغرائز الأولي

حية ناشطة، إنما مُلجَمةً بمهارة، لتخدم، لا الخير أو الصلاح، ولكن شبه الخير وشبه الصلاح لمنفعة الذات. هذه حالة وسيطة أتمنى أن لا يتبرأ منها القارئ، لأنه جائز جداً أن تكون هي حالته وهو مغشوش بدماثة سلوكه. ولكن بتعمق بسيط يكتشف الفارق بين الدوافع الدفينة وتمنياته السرية المختبئة وبين سلوكه الظاهري. الأمر هنا يحتاج إلى تصحيح سريع ومكاشفة للنفس. فالتعديل سهلٌ ولا يحتاج إلاَّ إلى مواجهة عارية من اللف والدوران، وكشف النيات والمقاصد الحقيقية لأب اعتراف حاذق، لكي يُدخل الغرائز داخل أقفاصها الحديدية التي لا ترحم، حتى لا تلوّث المقاصد والأهداف وتسخِّر الظروف لحساب شبعها وتلذذها. فالغضب، والكذب، والصداقة، والابتسامة، واليد الممدودة بالطبطبة والقُبلة، والجلوس على انفراد، كل هذه وأكثر تأخذ مظاهر راقية حُبِّية مهذبة، وهي تخدم النجاسة والخيانة وقلة الكرامة. إنها الغرائز الوحشية المفترسة وقد لبست ثوب الحَمَل والجهل، وظهرت بمظهر الأُخوَّة الحانية والأُبوة المشفقة والصداقة الودودة، وهي لصٌ يريد أن يفتك بالعفة ويهتك الطهارة. آه من هذه الغرائز الثعبانية اللئيمة!

ضرورة فحص النفس واكتشاف دوافع السلوك:

والسؤال الأبوي الأمين الذي أطرحه على جميعكم: هل صعبٌ أن تتبَّع عملك وسلوكك لتضع يدك على الدافع الصادق والحقيقي الذي يختبئ وراء السلوك؟ وإذا أمسكتَ بالنفس الزانية الفاجرة التي تستخدم الصلاح والتقوى والحنان والرحمة لحساب شبع الغرائز الجنسية وتلذُّذ الشهوة، فماذا سيكون ردُّ الفعل إذا واصلت هذه العملية الخائنة وهذا السلوك غير الشريف؟ سيكون تأصُّل النجاسة في الغرائز أمراً مفزعاً سيكلف أضعاف الجهد العادي لإبطال نشاطها.

أنت تكون قد درَّبتها كما يُدرِّب الكلب على الصيد والعض، وهيهات إذا استطعتَ أن تقنعه أن يكفَّ عما اعتاد عليه.

لا يتوه، أيها الأحباء، عن فكركم وذكائكم أن الغرائز حيوانية غير عاقلة. وأنت حينما تدرِّبها وتهذِّبها تكون كمن يدرب نمراً أو ذئباً لتستأنسه! أتوسل إليكم أن لا تستهينوا بطبيعة غرائزكم مهما طال عليها الزمن في الكبت أو التهذيب. وقصصُ الآباء فيها ما يُبكي.

غنائم تهذيب الغرائز وإخضاعها:

ولكن أعود إلى الوضع الإيجابي، فالغرائز عندما تُهذَّب جيداً وتخضع، تصير أعظم نصير وأعظم قوة ليطير بها الإنسان نحو الله والحياة الأبدية، وكلما كانت هذه الغرائز قوية وثائرة وعنيفة، كلما كان استخدامها بعد استئناسها عظيماً ومذهلاً؛ فعوض افتراس الفرائس ووضع الكمائن للصيد والقنص، يدخل الإنسان بعد التحول في مجال لا يهدأ حتى يقتنصَ اللهَ؛ ولا يكفُّ عن **وضع الكمائن بحكمة ليقتني الروح القدس ويستحوز عليه**، ولا يرضى بالقليل أبداً. فكلما كان الصياد صبوراً كلما كانت غنائمه ثمينة «ملكوت السموات يُغصب (بواسطة الصيادين المهرة) والغاصبون (الحاذقون في وضع الكمائن) يختطفونه (شجاعة وذكاء ومهارة) » (مت١١:١٢).

هذا هو معنى أن ملكوت السموات "يُغتصب":

نعم، صدقوني يا آبائي، الوحي يريد أن يقول ذلك - يريد أن يقول أن ملكوت السموات ليس حقاً مُكتَسَباً بالوراثة أو بالدراسة أو بالتقليد أو بالكسل أو بالاتكال الذي هو التواكل، ولكنه اغتصابٌ وخطفٌ. والاغتصاب يقوم على أساس أنَّ **لا حقَّ لي في هذا المخطوف، والخطف يعني تماماً "سلبٌ بقوة"**. هذا هو الذي يُعنيه الوحي. فماذا أنتم فاعلون؟

إن جماعة القديسين هو عُصْبة خطفت الملكوت واغتصبته بأعمال "ماكرة" ماهرة من البذل، وبيع النفس، والحب المجنون، والتعلُّق بالروح القدس تعلُّقاً مُقلقاً له حتى يوافق عن اضطرار، وإلاّ لَمَا أعطى المسيح أبداً قصة قاضي الظلم كمَثَل فريد من نوعه، وواضح أنه هو المستوى الذي ينبغي أن نصل إليه لكي نخطف الملكوت من يده وفمه عن غير حق وغير جدارة، لأنَّ مَنْ منا يستحق الملكوت؟؟ إذن، علينا اغتصابه بكلِّ الطُّرُق.

حثٌّ على تهذيب الغرائز:

هذا الأسلوب يتناسب مع غرائزنا الطبيعية الأولي جداً، المفترسة والجائعة والشرسة هذه، مع قليل من التهذيب، تصلح لخطف ملكوت السموات من اليد التي خلقت الإنسان على الخلود بغرائزَ معدَّة لاغتصاب هذا الخلود.

نحن كلنا وبلا استثناء عندنا غرائز، لو تركناها لخدمت الوحشية والتمرد ولخرَّبت علينا علاقتنا مع الناس والله. وصدِّقوني هي هي بعينها حينما توضع في سلسلة النعمة، فنضبطها ونُحوِّلها إلى قوى فائقة القدرة للتعامل مع الله والروح القدس والملائكة والقديسين، فمن يكون له عذر بعد ذلك؟

كلُّ من كانت له غرائز أصعب وأشرس، كلما كان أقدر وأجدر على اجتذاب السماء واغتصاب رحمة الله وبرِّه وملكوته. إذن، من يستطيع أن يعتفي والروح القدس قائم مستعد أن نمسكه ونطوِّق عليه بقلوبنا ونرغمه أن يأتي مع المسيح ويبيت، ولو ليلة ننعم بها، وليس ساعة، ننعم بها مع الحبيب وليس من رقيب.

يا لسعادة الإنسان! ويا لسعادة المجرمين والأفظاظ لو عرفوا هذا الطريق. موسى الأسود عرفه، فقاد جوقة من اللصوص الأشداء إلى الملكوت. فهيَّا!

كيف أسمو بغرائزي
(الإنسان الجديد)

بادئ ذي بدءٍ، يلزم أن نعرف أن الغرائز هي دوافع طبيعية تتحكم في قوى الإنسان الطبيعية المتعددة التي تستوعب كل مستلزمات الحياة الطبيعية برمَّتها. فهي، في أصلها، موزَّعة لتغطي كل نشاطات الحياة الطبيعية، وهي مغروسة في خلقتنا. لذلك كانت النصيحة الأولى التي أُقدمها، وأنتم رجال روحيون، أن تنتفعوا بهذه الطاقة في العمل، أيِّ عمل، ويا حبذا لو كان عملاً نافعاً مجهداً يعود على النفس بالراحة وعلى المجتمع بالخير.

توظيف الغرائز لا تبديدها:

وفي معالجة أي نفس، يُعتبر توظيف هذه الطاقات التي هي الغرائز هو أول واجب عملي يضع المرشد عينه عليه. إن هذا المفهوم قد يُفسد ما هو سائد الآن من اصطلاح شائع، وهو خطأ للغاية، الذي يقول إنه يلزم أن نستنفد هذه الطاقة أو نبدد هذه الطاقة ليظل الجسم سليماً. هذا المفهوم مدمِّرٌ لمفهوم القيمة العملية للغرائز، وينمُّ عن الجهالة بالطبيعة النفسية. فالطاقة أمانة ووزنة إلهية، وهي بطبيعتها ذخيرة غُرست في صميم الطبيعة لتسهيل الحياة وتجميلها. فكيف يجوز أن أقول بضرورة أن أُبدِّدها وأتخلص منها لصالح نفسي؟ هذه إساءة سافرة إلى الطبيعة البشرية وإلى خالق هذه الطبيعة.

والآن يتحتم أن نضع الاصطلاح المناسب والحقيقي بالنسبة للطاقة

المتولدة من الغريزة حيث يُقال: **أُوظِّف هذه الطاقة لعمل نافع ومفيد**، أي: أتسامى بالغريزة نحو تمجيد الخالق وتكريم ما خلق.

مثال لتجديد عمل الغريزة، والسموّ بها لتخدم الروح:

وعلى سبيل المثال، تعلمون أيها الأحباء أن الغرائز هي قواعد للَّذة والمسرَّة. فالذي يزني يتلذذ جسده ولو إلى حين (وبعد ذلك يأتي الشعور بالذنب وهياج الضمير والأسف القاتل). لذلك يتحتم أن يكون العمل الجديد للغرائز مفيداً ونافعاً بل ولذيذاً، ليتوافق مع أهداف هذه الغرائز الطبيعية، أي اكتساب مسرة أسمى من مسرة الجسد: «من التصق بالرب فهو روح واحد» (١كو٦:١٧)، «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» (مز٣٤:٨)، «الرب قريب» (في٤:٥)، واقف على الباب ويقرع ومستعد للدخول والعشاء مع النفس المتعبة.

عشق إلهي للمسيح:

وهل يمكن أن أصف لكم بورق وقلم مقدار اللذة والمتعة الحقيقية الواقعية والدائمة التي تغشى القلب والضمير والفكر، حتى الجسد، حينما يحل الله داخل الإنسان، الإنسان في مواجهة غرائزه الحية، فيدخل إلى حضرة المسيح ويمارس عشقة الإلهي حيث تذوب الغرائز وتتحول إلى غرائز سماوية تقبض على الحبيب ولا تُرخيه، مثل مريم ترتمي تحت قدميّ المسيح وتمسح رجليه بشعرها؛ وينفعل الإنسان بالروح الإلهي ويطيش عقله ليُخطَف، فيستبدل المحسوسات باللامحسوسات ويعاين شبه الرب.

أيَّ لذةٍ! أيَّ مسرةٍ! أيَّ إسعادٍ! أيَّ مجد تدخل فيه النفس حيث

يصيب الغرائزَ نوعٌ من الارتخاء، يتبعه الإشباع الذي يلغي كل وجهها الجسدي وتتجلى الغرائز وتتباهى وتمارس نشاطها بالكامل، إنما على مستوى الروح الصافي. يا لعجب الله في تحويله لجبلتنا، لتعود تخدم كالملائكة بنفس ما لها من مَلَكات، من بعد أن كانت قد أفسدتها.

وشهوة منطلقة نحو حبيب غائب:

فالشهوة هي هي كما كانت، ولكنها الآن **شهوة منطلقة نحو حبيب غائب**، كله حلاوة وحَلْقُه مشتهيات: «ليقبِّلْني بقبلات فمه، لأن حبك أطيب من الخمر... ما أحسنَ حُبَّكِ يا أُختي العروس! كم محبتك أطيب من الخمر! وكم رائحة أدهانكِ أطيب من كل الأطياب! شفتاكِ يا عروسُ تقطران شهداً: تحت لسانك عسلٌ ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان... حبيبي أبيضُ وأحمرُ... رأسه ذهبٌ إبريزٌ... عيناه كالحمام... إلخ» (نش١:٢؛ ٤:١٠،١١؛ ٥:١٠،١١). أُنظروا كيف تعمل الغرائز بكامل طاقتها ولكن لمديح الروح وفرح الروح: الطعوم تغيرت من جسديات لروحيات، والألوان والمناظر والتشبيهات هي بعينها ولكن بدأت تخدم الأمجاد العليا؛ لقد وُظِّفت الغرائز لتخدم النور عوض الظلمة.

وخدمة لأمجاد الخالق وللنور وخالق النور:

هنا لا يمكن أن نقول إن الطاقة النفسية تبددت أو استُنفدت، ولكنها سمت بكل يقين وتعالت؛ وبدأت **تخدم الذي خلقها**. وهنا يا لنعيم الغرائز! ويا لنعيم الإنسان الذي يتمجد ويتبارك بسببها! أُنظروا كيف صارت الغرائز التي كانت تخدم القُبح والفجور والنجاسة والزنا وكلَّ أمر قبيح؛ وكانت مسرتها جداً في هذا الجو

الكئيب؛ أُنظروا كيف صارت تخدم النور وخالق النور! أُنظروا لأي مجد دُعينا، أو كنا مدعوين أصلاً، ولأي مجال من النور خُلقت الغرائز له وللتمتع به؟

أليس هنا تصبح كلمة الله صادقة كل الصدق: «ولذَّاتي مع بني آدم» (أم٣١:٨)؟ وهنا يقف داود أيضاً على قمة التسامي، يغني قائلاً: «سبِّحي يا نفسي الرب... أُسبِّح الرب في حياتي وأُرنِّم لإلهي ما دمتُ موجوداً» (مز١٤٦:١،٢)؛ «دائماً تسبيحُه في فمي... سبحوه سبحوه سبحوه سبحوه!» أُنظروا الغرائز كيف تدخل كصفوفٍ وخوارسَ، كعرائسَ طاهرةٍ مُزيَّنةٍ لتُسبِّح الرب؛ هذا هو مجال النفس والغرائز في أصل خلقتها: «إلى اسمك وإلى ذِكْرك شهوة النفس. بنفسي اشتهيتُك في الليل. أيضاً بروحي في داخلي إليك أَبْتكر» (أش٩،٨:٢٦)؛ خُلقتْ لتُسبِّح الله والنور والجمال والطُهر؛ ثم انظروا كيف انقلبت رأساً على عقب لتخدم النجاسة والزنا والإثم والفجور وأَتقنت الانحطاط، لدرجة أنها غشَّت الناس وكأنها خُلقتْ وهذا أصلُها ومَنْبتُها! وحاشا لله الخالق الصالح أن يكون.

دعوة الله للإنسانِ:
تغيير القلب أولاً (أي الإيمان):

وليكن معلوماً لديكم أن الله حينما يدعو إليه الإنسان يقول: «يا ابني أعطني قلبك» (أم٢٦:٢٣)، فهو لا يطلب في البداية تغيير عقيدة أو دين. ولكن ما هو قبل العقيدة وقبل الدين، الله يطلب تغيير القلب، "لأن القلب (هو الذي) يؤمَن به للبر" (رو١٠:١٠)، لذلك فالله يطلب القلب المُسبِّح، أما الشفتان فتأتيان في النهاية، «والفم يُعترَف به للخلاص» (رو١٠:١٠)، والشفة تعبِّر عما في القلب. هذا صحيح من

جهة الغرائز الطبيعية، لأن الغريزة تسكن القلب ثم تعلن عن ذاتها بالفم أو الحركة.

المهم، يا أحبائي، أنه عندما يتم التحول ويتسامى الإنسان بغرائزه، لا يعود يشعر بحرمان من شيء قط. فالله كفؤٌ أن يملأ الإنسان بكل رضى وشكر وفرح: «أمامك شِبَعُ سرور. في يمينك نِعَمٌ إلى الأبد» (مز١٦:٥)، «حلقُه حلاوة وكله مشتهيات» (نش١٦:٥). المسيح يستطيع، بصفته الفادي والمعطي الحياة بعد الموت، أن يكون للإنسان عوض الأب والأم والزوج والزوجة والبنين والبنات سواء كانوا عائشين فيضيف عليهم من القيمة الروحية المعادلة تماماً، أو غائبين فيعطي القيمة مضروبة في مائة ضعف حتى لا يكون هناك أدنى خسارة.

ماذا أقول؟ وبماذا أُعبِّر؟ إلا أن أقول: اهتفي أيتها البشرية المتعبة والحزينة! اهتفي بأعلى صوت، أنْ لنا في السماء ما يكفينا على الأرض لأنك أنتَ الذي لنا، ومعك لا نريد شيئاً على الأرض (مز٧٣:٢٥).

في المسيح مُستقرُّ الحب، وراحة الغريزة:

الغريزة الواحدة، يا أحبائي، في منبعها، أو بالحري الطاقة الإنسانية الأولى والأصلية حسنة جداً كما خلقها الله أولاً. والفارق الوحيد هو في ماذا يجب أن الغريزة تحب؟ في المسيح أصبحت غرائزنا تحب ما ينبغي وما يليق أن يُحَبَّ، وتريد ما ينبغي أن يُعمل، وبدون المسيح تتوه الغريزة وراء إيحاءات وإلحاحات الغرائز التي يضع الشيطان أصبعه فيها، فينقلب الواجب إلى استباحة مفسدة، والعلاقات الأخوية إلى عشق أجساد في الحرام مآلها النتن والدود؛ وعوض الصدق والأمانة والشرف تنغمس الغرائز في الخديعة والمكر للسرقة والصيت الحرام.

الغريزة، باعتبارها القوة الطبيعية التي تحرك الإنسان، إذا ارتاحت في المسيح وتوطدت ورسخت، لا تعود الشهوات والميول والإيحاءات تؤثر عليها أو تحركها لأنها تكون قد اكتسبت صلابة من التعاهد مع الحق والفضيلة والطهارة عوض القلق والتردد وعدم الثبات في الفكر والرأي والسلوك، لأن الغرائز المسيَّبة تطوِّح بالإنسان، دون أن يشعر أو يريد، إلى أقصى مهاوي الهلاك، ولا يتيقظ الإنسان إلا وهو في قاع التجربة.

نوع نشاط الغرائز هو الذي يحدد نوعية سلوكنا:

والعجيبة أن الإنسان منا لا يدري أن نشاط غرائزه هو الذي يحدد سلوكه ويبرز بنوع ما شخصيته مهما حاول أن يُضفي عليها من صفات أخرى. وهكذا يظل الإنسان يتردد علوّاً وهبوطاً حسب مدى بروز دور الغرائز في أقواله وأعماله ومفهوماته؛ فهي إمَّا تُهبطه إلى الحيوانية وإمَّا ترفعه إلى رزانة الإنسانية وطهارة السيرة والسريرة.

لذلك، أكرر القول مراراً أن غرائزنا تضفي علينا الصورة الحيوانية التي يحكم بها الناس علينا. فالنجس المربوط بالجنس ويلذُّ له النطق بألفاظ الجنس والقباحة، نقول عليه "خنزير"، والماكر الغاش المخادع نضفي عليه اسم "الثعلب"، والخائن الذي يأخذنا وينهبنا على غِرَّةٍ نسميه "ذئب"، واللئيم الذي يتحين الفرص للضرر نسميه "ثعبان". وهكذا، يا أحبائي، تسيطر الغرائز على صفاتنا وتصبغنا بصفة، مستحيلٌ أن نتخلص منها إلاّ بمعجزة، وذلك حينما يتم التغيير فجأة ويبرز السلوك الخيِّر ويغلب كل نواقص الماضي وتأخذ الشخصية صورتها المسيحية الجديدة.

خطورة التغافل عن النفس:

كما أنبه، يا أحبائي، انه لا توقفَّ في بناء الشخصية حتى إلى باب القبر؛ فالذي يتوقف عن النمو والتغيير، ينحدر إلى خلف بسرعة لتطغى عليه الغرائز وتسود. ومهما كان الإنسان روحانياً وتغافل عن نفسه، فإنه يرى بعينيه كيف يتهاوى إلى أسفل. وهذه إحدى النقائص الخطيرة والعظمى التي تصيب المتدينين؛ ولو أن معظمهم يتغافل ويدَّعي القدرة على النهوض مرة أخرى. ولكن هنا التحذير الخطير: وهو أن عودة إنسان خاطئ مبتدئ إلى حضن المسيح بالتوبة أسهلُ من تنشيط رجل روحاني تغافل عن نفسه عمداً.

ولكن سأظل أذكر وعلى الدوام أن عنف الغرائز وشدتها ينبئ دائماً بتغير مثير، وأن التحول إلى حياة جديدة روحانية يحمل أقوى دوافع الحب وأشد مشاعر التعلُّق بالمسيح وقدرة على البذل وحفظ الطهارة بشكل يشهد للمسيح على أعلى مستوى، على أمثلة القديسين أُغسطينوس، وموسى الأسود، وماريا القبطية الناسكة، وأنطونيوس نفسه. كل هؤلاء تجمعهم حقيقة واحدة وهي أنه من العسير أن نحصل على حياة روحية عالية القدرات والمواهب، دون أن يكون وراءها ما يسندها من الدوافع الغريزية المنوط بها تنشيط هذه القدرات، والتي تُعتبر كأوعية ملائمة لحمل دفقات النور والنار المنسكبة عليهم كل يوم وكل ساعة.

الإنسان الكامل في المسيح،

تصالح القوى الغريزية مع القوى الذهنية لتلتحم مع الروح القدس:

على أنه لا يمكن للقامة الروحية أن تكتمل في الإنسان، إلا إذا تصالحت القوى الغرائزية الطبيعية مع القوى الفكرية والذهنية

لتلتحم التحاماً منسجماً وأصيلاً بالروح القدس. وهذا هو الإنسان الكامل في المسيح، أو الإنسان الجديد الروحاني. على أن قول بولس الرسول: «تغيَّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم» (رو١٢:٢) ما هو إلاّ إعادة مصالحة وتكميل التحام بين القوى الطبيعية المتمردة وبين القُوَى الذهنية المتأدبة تحت أقدام الإنجيل والروح القدس الذي يتمجد في القديسين، حيث يكون اتجاه النفس الكلي والموحَّد نحو هدف واحد، وهو حُبُّ المسيح، دون أي انقسام بين الجسد والفكر والروح.

هنا، حذار أيها الآباء الروحيون والإخوة الأطهار المدعوون لميراث النور! حذار من يقظة الغرائز التي تمصُّ عصارة الروح، حيث يبدأ الإنسان يذبل عوضَ أن يتأجج ناراً.

فأيقظوا عزيمتكم! والله والروح القدس والمسيح نفسه قادم ليحارب معكم، أنتم الذين دُعيتم من وسط هذا الجيل لتشهدوا للمسيح ولعظمة قدرته، الذي قهر سلطان الظلمة وقيَّد المدعوَّ إبليس، حتى يكون حُراً في حربه معنا، فالذين معنا أكثر من الذين علينا! آمين هلليلويا!

ولا تظنوا أن تسبحة المائة والأربعة والأربعين ألفاً (رؤ١٤:٣) هي ألفاظ بشرية، ولكنها هي حصيلة الانسجام بين الغرائز الطبيعية، والذهن المستنير، والروح المتكلِّم؛ تماماً كما ترون الرجل الموسيقيُّ، فاللحن الخارج من تحت أصابعه هو حصيلة الانسجام الكلي بين الأصابع المتحركة التي تمثل الغريزة، وبين الذهن الحاد الذي يقرأ العلامات، والروح المتعقّلة التي تُبدع إبداعات تفوق ما هو مكتوب وما هو معقول.

فالآن أُجبرتُ أن أختم كلماتي هذه، وعندي المزيد من الحديث. فاصْفحوا عن عجزي! والرب إله السماء الذي اختاركم هو وحده القيوم الغيور القادر أن يغسلكم ويطهركم ويُلبسكم أكاليل المجد.

تصحيح مفهوم الصراع

ليس هو صراعاً بين الخير والشر

بل هو صراع بين غرائزَ لم تَرْقَ ولم تُضبط ولم تُسَوَّ قضيتها مع النفس بعد، وبين ضمير ارتقى بالكلمة وازداد وعياً بالله ونصَّبته الحكمة حارساً على مخارج السلوك ومداخله.

فالقضية، كما ترون، قضية غرائز مسيَّبة وغرائز مهذَّبة.

مفهوم الصراع: نزاع بين الغرائز والضمير:

ويبدأ الصراع على مستوى نزاع. إذا لم يجد له الحل الفوري، فإنه ينتهي غالباً بالقطيعة بين الغرائز البدائية المسيَّبة وبين الضمير الواعي والمتحكِّم بالكلمة، والمتمسِّك بالآية والوصية، حيث تكون النتيجة إضراراً بالغاً بمركز التحكُّم، وإتلافاً للضمير. هذا إذا سادت الغرائز وتحكَّمت لحساب الحيوانية؛ سواء كان ذلك على صورة غضب أو نقمة أو حقد أو عداوة أو نجاسة.

هنا الضرر والإتلاف يصيبان الحياة الروحية بتصدُّع يصعب إخفاؤه ويصعب إصلاحه. فالغرائز الحية سمٌّ مميت داخل وعاء النفس، إذا لم يحاصَر أتلف المحيط كله وجعل الجسم والفكر والضمير، كما يقول الكتاب: «يُضرَم من جهنم» (يع٣:٦).

الإصلاح يبدأ بمواجهة الغرائز مع الضمير، وتطويعها له:

وإن أردنا إصلاحاً سريعاً وعودة إلى الحكمة والتعقُّل، فيلزم، وقبل

التراجع أو الندم أو الاعتذار أو التصحيح، يلزم مواجهة صريحة أمام الله لكلا هذين النقيضين: **الغرائز بوضعها الوحشي**؛ والضمير **بوضعه الراقي المتألم، أو الرقيب، الذي هو بمثابة الحَكَم، هذا إذا كان الحَكَم هو الإنجيل** أو الوصية الواضحة الصريحة. لذلك لابد للعودة مرة أخرى إلى تطويع الغريزة لهارموني (أي تناغم) **الضمير والوصية**، ليخرج الفرح بالله وتسبيحه على هذه الأوتار الثلاثة منسجماً ومريحاً. وكما ينسجم الخيال مع الواقع لدي الموسيقي الماهر حيث تلتقي قوى الإبداع الذهني مع براعة الأصابع، مع أصول التوقيع وقواعده، هكذا تعطينا الغريزة أعلى إبداع ممكن، إذا نالت التهذيب وتوافقت حركاتها مع عفَّة الروح وقداسة الحق. وهكذا ترتفع الغريزة الوحشية العمياء وتسمو لتبلغ سماء العفة والقداسة شاهداً مبدعاً لعظمة الخالق.

الغريزة الحية شرط لبلوغ العفة، إذا تناغمت الغريزة مع الروح:

بل، ومن ناحية أخرى يُتعجب لها، فالسمو الروحي وحياة الطهارة النقية الصارمة لا تبلغ ذروتها إلاَّ بتدخل من نبض الغريزة واندفاعها. فالغريزة هي الأرغن الذي تعزف عليه الروح أبدع أنغامها. فإذا حدث وفقد الإنسان قوة دفع الغريزة أو أُصيب كلياً أو جزئياً بالعجز، فإن مواهبه تنحصر في أضيق الحدود!

سبحانُك يا ربي، يا من جعلت ضعفنا آلة لمجدك! تباركتَ وتعاليتَ!

وهكذا أُعلِّي صوتي إلى كل ذي غريزة هوجاء أن لا يكرَهْها أو يحاول إلغاءها أو إطفاءها، بل ولا نوافق حتى على احتقارها؛ فنحن إذا أحسنَّا توجيهها ونجحنا في ضبطها وتهدئة فورانها، فإنها تصير لا عدواً للعفة بل نصيراً لها. بل وإن العفة ذاتها لا تُدعى عفة، إلاَّ إذا صدرت

عن غريزة حية متناغمة مع الروح. وإن فقدان الغريزة معناه فقدان كل الفرص لتقديم العفة كباقة زهور في بذل المحبة أمام عرش الله.

الصراع هنا ليس صراعاً مع العفة، ولكنه لحسابها؛ **وليس صراعاً مع طبيعة الغريزة**، حاشا! فالغريزة مجبولة على عمل التعقل وفي حدود الانضباط، لذلك فهو صراع **ليس مع طبيعة الغريزة بل مع انحرافها**. وهو صراع لوضعها في دائرة الضبط والمعقول، تمهيداً لكي تتلقفها يد الله فتتحول نارُها إلى نور، ولهيبها إلى نسيم تندهش له الملائكة وتتهلل له أرواح القديسين.

إذن، لا أكون مبالغاً، أيها الآباء الأعزاء المجاهدون، إذا قلت إن الغريزة هي المادة التي تصنع القديسين!

المجد لله، والعزَّة له، والتسبيح والتهليل لاسمه المبارك! افرحي يا نفسي وارْتعي واسْتقي من نبع إنجيل الحياة؛ فقد استودَعَنا اللهُ طبيعةً هيَّأها لتكون مادة يصنع منها قديسيه.

إن كل ما فينا خُلق ليصير سماوياً، وإن تهذيب الغريزة لتتوافق مع كلمة الله وصوته لا يمكن احتسابه **صراعاً ضد الطبيعة البدائية** المخلوقة بيد الله، بل هو **صراع للعودة بها** إلى أصول الخير الذي جُبلت عليه ولتوجيهها إلى الوضع الذي ستُمجد فيه خالقها.

تصحيح مفهوم "الصراع مع الغريزة"، إلى "صراع للعودة بها إلى أهدافها":

أما هذا التعديل في المسار والتهذيب في الأداء والاستعلاء بمضمون النشاط وأهدافه بالنسبة للغريزة، فيستحيل قبوله بمفهوم الصراع. فنحن لسنا أمام عدو شرس، كما يتراءى ظلماً للبعض، بل مع طبيعة خيِّرة، كل ما في الأمر أنها نسيت أصلها وتغربت عن أهدافها. ونحن

يستحيل بأي وجه من الوجوه أن ننسى أو نتجاهل أننا مخلوقون على صورة الله. فمهما أمعن المحللون للغرائز في أن يُرجعوا صفاتها وعملها إلى الحيوانية، فنحن نصرُّ على أنها، وإن كنا نحن قد خُلقنا في البداية بغرائز حيوانية، إلا أنها (أي الغرائز) تحمل في صميم طياتها مستقبل الإنسانية بل ومستقبل الإنسان الراقي الذي نزحف الآن نحو استجلاء ملامحه. فحيوان الماضي هو بعينه سوبرمان المستقبل غرائزَ وأخلاقاً! وأعظم دليل على ذلك هو قابلية الإنسان للتعليم وقابليته الهائلة للتغيير والرقي، الشيء الذي يستحيل أن نراه في أي مخلوق سواه.

لا نُصارع، بل نهذِّب ونضبط:

من أجل هذا كله أستطيع أن أقول إن صراعنا مع غرائزنا وطبائعنا التي تبدو وكأنها عدوٌّ غريب عنا هو وصف خاطئ ووهم باطل. فنحن لا نصارع بل نهذِّب ونضبط بالتدريب وتكوين العادة، وكأننا نعيد وعي الغرائز إلى صورتها الأولى جداً التي وهبها الله في الإنسان، كوزنات أو كهبات تعمل فرادى ومجتمعة لخير حياة الإنسان الطبيعية التي تدفع عنه الضرر، وتسهِّل له اغتنام أكله وشربه؛ وتؤهله للائتلاف مع مُعين نظيره لتسهيل الحياة ومع الجماعة لزيادة المناعة. فنحن إذا أحسنَّا التهذيب لغرائزنا، وصلنا إلى الإنسان اللائق.

روح الله يتولى التهذيب، ليقودنا إلى "الإنسان الكامل":

ولكن هذا التهذيب وهذا التدريب بالنسبة للغرائز مفتوح إلى مالانهاية، نصل به إلى الإنسان الكامل ثم الأكمل ثم إلى مالانهاية، لأن الذي يتولى التهذيب - بعد الإرادة - هو روح الله نفسه الذي خَلَقَنا

على صورته، والذي لن يهدأ ولن يكفَّ إلا إذا بلَغْنَا هذه الصورة، فهي الهدف والقصد الإلهي الذي خُلِقْنا عليه ومن أجله، لا كأنها صورة غريبة عنا فيما بعد، بل على أنها ستكون حينئذ هي الصورة التي نرتاح إليها ونفتخر بها والتي لا تعمل فيها الغرائز فيما بعد للصراع بل تسير مع مسيرة الإنسان وكأنها عادته المريحة.

أنا لا أتكلم، يا أحبائي، عن ما سيكون في السماء، بل أتكلم يقيناً وكأني أرى بعضكم أمام عيني أنه سيعيش هكذا، بل هو يعيش، وإن كانت الأعمال الجسدية تعمل كستار تغطية للتمويه على الحقيقة المضيئة التي تعيشها النفس.

من "صراع مع الجسد"، إلى "صراع لأخذ بركة من الله":

في مثل هذه الحالات يتحول الصراع مع الجسد إلى صراع مع الله نفسه لأخذ الوعود وتكميل المواعيد واغتصاب البركة، بشبه يعقوب المصارع الأول للبشرية مع الله لنوال حقٍّ ليس له وبركة تزيد عن قامته، فأخذها لنفسه ولنسله من بعده، وأخذها نافعة لهذا الدهر ولائقة للدهر الآتي. وأنا أُسميه صراعاً بالمعنى الصحيح، فهو صراعٌ بين الإنسان والله صراعُ مَنْ ليس له استحقاق قط أن ينظر أو يسمع أو يلمس شيئاً عن الله قط.

ولكن الله صاحب الطبيعة الأسمى هو نفسه الذي دعانا للصراع معه صراحة: «ملكوت السموات يُغصب والغاصبون يختطفونه» (مت١١:١٢)، لأنه حقٌّ ليس لنا، وليس منا، ولا نحن له، ولا منه. هنا الصراع صراع حقيقي، ولكنه صراعٌ ألذُّ من الحياة، وربما الحياة برُمَّتها خُلقت له، لكي نرتقي مما لنا إلى مما له **لنحيا معه إلى الأبد!**

ولكن، وفي وسط هذا الخضم من الصراع والاغتصاب والاختطاف،

لا أنسى غريزتي التي أعطتني هذا العناد الذي لا يلين: "لا أُطلقك إن لم تباركني"(*) (تك٢٦:٣٢). هي غريزتي التي وهبتني الصبر والعراك طول الليل، لا يرتخي لي جفن ولا يد وأنا ممسك بالذي في يده حياتي وسعادتي وفرحي وحبي، يسوع الذي وقف يتقبَّل الآتين إليه: «تعالوا إليَّ» (مت١١:٢٨؛ يو٧:٣٧). وبقدر ما أذوق بقدر ما أُصارع، لا يقف أمامي عائق ولا عدو، فحياتي في الذي أمسكتُ به: «امسك بالحياة الأبدية» (١تي٦:١٢). وطالما إني لم أشبع بعد، فسأصارع حتى الفجر!

فمفهوم الصراع الآن، أيها الأحباء، حتى مع الجسد، يكون قد ارتقى هكذا إلى صراع مع غرائز هي صديق وليست عدواً لي، حتى أكتسبها لتكون أدوات صراعي الأعظم والأكمل مع حبيبي الذي يود أن يهرب من بين يديَّ. فطوبى لمن ثابر في الأول (أي في الصراع للعودة بالغريزة إلى هدفها الخيِّر)، وطوبى جداً لمن غلب في الثاني (أي في الصراع لنوال الحياة الأبدية) «حوِّلي عني عينيكِ فإنهما غلبتاني» (نش٦:٥).

وماذا أقول لكم، يا أحبائي، فبقدر مرارة الصراع الأول، بقدر حرارة وفرح الصراع الثاني. ولكن هذه هي الحقيقة: إنه لولا الأول ما كان الثاني ولن يكون! كم من عقباتٍ، كم من عثراتٍ، كم من ضلالات لتثبط العزيمة ولتنهبَ النفس كلها غنيمة! إن العدو يضع في الصراع الأول جميع أسلحته بلا استثناء، كلَّ الترهيب وكلَّ الترغيب، لا يكفُّ الليلَ ولا النهارَ لكي يوهمنا أننا خسرنا الصراع الأول. أبداً، أبداً ولن يكون هذا؛ فالرب واقف يرصد النية والضمير؛ ويسجل نبضات الألم والندم؛ ويقيس زاوية الانحياز إليه ليضخمها مهما كانت صغيرة؛

(*) هذه الكلمة قالها يعقوب حينما "صارع مع الله" طوال الليل وحتى طلوع الفجر، كما يقول الوحي الإلهي (سفر التكوين ٣٢)، إلى أن أخذ البركة منه.

ويجعلها وكأنها داخل دائرة حبه.

لا نصارع بدون الله، فلا ملل ولا يأس:

لا تملُّوا من الصراع الأول، هكذا ينادينا الإنجيل والآباء وكلُّ من ذاق الطريق؛ فكل أهوال الصراع الأول لا تُقاس بسعادة الإحساس بأننا قد غَلَبْنا وبأننا محفوظون ومحروسون: «وهم غلبوه بدم الخروف وبكلمة شهادتهم» (رؤ١٢:١١). وأنتم تذكرون سفر الرؤيا وتكرار كلمة «من يغلب فسأعطيه...» (رؤ٢:٧،١١،١٧،٢٦؛ ٣:٥،١٢،٢١)، علماً بأننا لن نصارع وحدنا. وإن لهفة الامتداد إليه والصراخ نحوه تجعله يتحنن في النهاية ويجذبنا، هذه حقيقة: «اجذبني وراءك فنجري» (نش١:٤)، لأننا إن سرنا بدونه نتعثر، ولكن إذا جَذَبَنا هو بحبه فنحن نجري، ولكن نجري ولا نتعب! نكاد نمسكه بأيدينا ولكن لا نراه، نحبه جداً ولكن لا نعرف كيف ندركه، وقد ندركه ولكن لا ندرك كماله.

لا بد من الصراع، لنؤهَّل للجذب الإلهي:

يا أحبائي في الرب، إن صراعنا، كما يقول الكتاب، متعدد الجهات. فهو ليس مع لحم ودم بل مع أعداء يتربَّصون، يستخدمون كل الأسلحة المتاحة، ومنها غرائزنا، إذ يضعون أُصبعهم في مسارها، فترتبك لتقيس بالمعكوس وتشتغل بالضدِّ. فصراعنا معهم محتَّم علينا، لنتخلص من هذا الجذب الخاطئ الشديد، لنؤهَّل للجذب الإلهي. كلُّ القديسين عبروا مرارة الصراع الأول، وتركوا لنا العدو مقهوراً ومندحراً، علامةً أبديةً على ضعفه إزاء مَنْ يصرخُ ويستغيث الليلَ والنهار، فاصرخوا يأتيكم العون من العلاء، ولا تعطوا لجفنكم نعاساً ولا راحة حتى لا يستريح العدو في أجسادنا أبداً؛ بل حاربوا حروب الرب! أُنظروا إلى جدعون (سفر القضاة من ٦-٩)!

والرب الإله الذي استغاثت به ألوف الأرواح فأغاثها، يسمع لكم ويسمع لي، ويؤهلنا للراحة العظمى.

❖❖❖

اقبلوا محبتي في المسيح. والقادر على كل شيء يحفظكم بلا لوم في المحبة.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

المصالحة

قلت لكم، يا أحبائي، في اختصار، **إن كل الغرائز الطبيعية المخلوقة والمغروسة في صميم طبيعتنا خُلقت أساساً على غير فساد، وخُلقت لتمجيد الله بالنهاية.** لكن اعتورها في الطريق انحراف، واتخذ منها العدوُّ المضلُّ إقامة مؤقتة زيَّف طبيعتها وزيَّف مطاليبها وزيَّف أهدافها.

ولكن، في النهاية، انكشف لنا كلُّ شيء؛ وعرفنا جهاراً ومن فم الوحي المقدس: «ألستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله» (١كو١٩:٦)، وحينما قال بولس الرسول نفسه: «فإني أعلم أنه ليس ساكن فيَّ أي في جسدي شيء صالح» (رو١٨:٧)، قال هذا قبل أن يعرف المسيح وقبل أن يتعامل مع روح الله. ولكن بعد أن انفتحت عينه ورأى الصراع الهائل الذي جازه المسيح عنا وفي الجسد، عاد فقال: «لأنه ما كان الناموس عاجزاً عنه فيما كان ضعيفاً بالجسد، فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية، ولأجل الخطية دان الخطية في الجسد (بالصليب) لكي يتم حكم الناموس فينا (اجتياز حكم الموت) نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» (رو٨:٣،٤).

هذا هو أعظم صراع أُكمل على الأرض لحساب الإنسان، صراع الروح مع الجسد، صراع القداسة مع النجاسة، صراع البر مع الفجور والإثم، صراع الحب واللطف والبذل ضد الجسد والحقد والبغضة. وبالاختصار، صراع عوامل الحياة الأبدية في غرائز الإنسان وطبيعته، ضد صراع عوامل الفساد والهلاك والموت المزيَّفة.

مجِّدوا الله يا أولاد الله، فلم يعد مجال واحد متروك دون شهادة وختم

أن الله قد غَلَبَ لنا العالم في جسم ابنه يسوع المسيح، لنعيش بجسد يسوع أحياءً وقديسين وأبراراً وبلا لوم في المحبة.

النور الإلهي واليد العليا،
يمتدان للتطهير والتبرير:

انتبهوا! فالنور الذي كان في الماضي يكشف عوارنا ويفضح خفايا قلوبنا ويضعنا أمام حكم الدينونة والموت، صار هو هو بعينه الذي يتسلط على أقبح ما فينا فيشفيه، ويحوِّله نوراً، وأقذر وأفجر ما في ضمائرنا يغسلها لتصير بيضاءَ كالثلج، واليد التي كانت مرفوعة بحكم الموت على كل أعمال الإنسان الميتة، هي هي بنفسها حملت لنا شهادة بل بشارة براءة، لأنه على وجهها هذا كُتبت أسماؤنا وعلى الوجه الآخر أثر المسامير! والإنسان الذي كان يختبئ في زوايا ضميره أفعال القبح وأعمال العصيان والتعدي بكل صنوفها، صغيرها وكبيرها، وكان يمعن في إخفائها في طبقات الضمير السفلى حتى لا تعود تتراءى، لا في صلاة ولا في اعتراف أو حديث ولا حتى في الذاكرة، إذْ باليد العليا، القادرة المقتدرة الحانية بكل جراءة الحب، تمتد لتُخرج كل هذا إلى الخارج إلى النور ليتوبخ قليلاً من الضمير، ثم يغتسل في بحر نعمة الله المجانية.

ما أعجبك يا الله حينما تصير لنا أب اعتراف! حقاً لن يدانيك أبٌ في الوجود؛ لأن الذي يدين صار هو الذي يُبرئ. فكل الخبرات المؤلمة الشائكة التي يتحاشاها الفكر والشعور، إذ كان يظن أن ليس فائدة وقد فات الأوان وكأنه لا حلَّ ولا حتى عزاءً، هذه الخبرات الدفينة المؤلمة تدفعُها اليد القادرة المقتدرة عالياً لتصير عنوان اعتراف مكتوب تراه العين وتتملأ منه، وفجأة تغيب تحت وطأة قطرات الدم الساقطة من الجسد النازف الذي تجسد ليرفع عن هذه الأجساد هذه الهموم كلها

التي كالجبال.

الرب يسوع المسيح هو الذي صارع عنا، وصالح وغلب:

لقد قَبِلَ الرب يسوع الصراع، أعظم صراع، في جسده؛ وتغلب على كل أنواع الخطايا بكل صنوفها عنا، وأدانها جميعاً وقهرها وتقبَّل الموت عنها؛ فاختفت في بحر نسيان الله ولن توجد بعد!

هذا هو يسوع المسيح المصارع الأعظم الذي إذ قبلناه داخل القلب، أبطل كل صراع؛ فتصالحت في قلوبنا جميع المتناقضات، كما يقول القداس: "وحَّد وآلف السمائيين مع الأرضيين والنفس مع الجسد" (القسمة السريانية)، «أما دانَكِ أحد؟... ولا أنا أدينك، اذهبي ولا تخطئي أيضاً!» (يو٨: ١٠، ١١).

حثٌ على الاعتراف بخبايا النفس:

يا أحبائي، أنا أتوسل إليكم أن لا يبقى بعد ذلك شيء مكتوم داخل القلب، اكشفوا كلَّ شيء أمام الذي أمامه كل شيء مكشوف وعريان! أَخرجوا المخبَّآت لترى نور المسيح، نور الصفح والغفران مجاناً! كلُّ ما ترونه غير جدير بأن يظهر للنور من شدة قبحه، اعلموا أنه مدفوع ثمنه بزيادة حتى هذه الساعة، لكي تطرحوه أرضاً وتدوسوه بأقدامكم، وتستلموا صك براءة مكتوباً بأُصبع يسوع مغموساً في دم الصليب.

واعلموا أن القلب لا يحتمل الحب والندم معاً، وإنْ تُرك هكذا يتحطم. أَدْخِلوا المُصالِح بينهما، صاحب الصليب، ليصالح بدمه الحب والندم ولتخرج ترنيمة جديدة للمصالحة العظمى لا يعرفها إلا الذين غلبوه بدم الخروف وكلمة شهادتهم. اشهدوا لمقدرة المسيح؛ وعيشوا ولا تموتوا!

يا أحبائي، لقد صوَّرت لكم فيما سبق أنواعاً من الكبت وأنواعاً من الصراع؛ وقد صححت على قدر استطاعتي من هذا وذاك. والآن هنا أدعوكم إلى الخروج إلى النور: «الله نور» (١يو١:٥).

فلا تُبقوا ركناً واحداً في قلبكم مظلماً.

لا تحتبسوا إثماً أو خطيئة أو تعدِّياً لئلا تحجزوا وجه الشمس بجهالة.

أُخرجوا إلى الذي ينير العالم «أنا هو نور العالم» (يو١٢:٨)، لأنه من غير المعقول أن يخفق في أن ينير خفايا قلوبكم.

أُخرجوا إلى الحرية، كلُّ من عاش بضمير خطايا لا يستطيع أن يقول إنه رأى النور أو إنه ذاق الحرية، حرية البنين، إذ لابد أولاً أن يسمّر ضمير الخطايا على صليب المسيح أولاً، وحينئذ تُغسل الخطايا في رشاش الدم المتساقط. هذا هو حق الإنجيل: «فلنتقدم بقلب صادق في يقين الإيمان، مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير ومغتسلة أجسادنا» (عب٢٢:١٠).

نحن خطاة كلنا، وليس ولا واحد فينا بلا خطيئة، ولكن ونحن رافعون أيدينا بشبه الصليب تجاه المسيح ، **لن يكون لنا ضمير خطية. نحن فينا خطية**، لا يمكن أن ننكر ذلك وإلا نكذب ولا يكون الحق فينا، ولكن **ليس علينا خطية**، لأن الذين معنا كثيرون: مسامير، ويد مثقوبة، وذراعان ممدودتان، وجسد مضروب بالسياط، وحربة نافذة حتى الصدر، ودم مسفوك بلا كيل. كل هذا معنا، أما الذي علينا فهي مشورات جهالة، وأعمال وضع فيها الشيطان أصبعه الذي سيبيده الله بنفخة فمه. سنبقى نحن، حتماً سنبقى، لأن المسيح معنا وروح الله فينا، والزائل سيزول مهما تحصَّن في أسوار ترابية!

المسيح يُشركنا في حياته وآلامه، ويكمّل خلاصنا:

إن أموراً كثيرة مفرحة جداً تنتظرنا الآن، لو نحن تشجعنا وأمسكنا بالحياة الأبدية بعناد ودُسنا تحت أرجلنا كل مقترحات العدو ومشوراته. ولكن الأمر الذي لا يمكن أن نَغْفَلَ عنه، هو أن المسيح يرسم صورته فينا منذ الآن، لأنه يريد أن يشبه إخوته في كل شيء.

فجروحنا هو يوصلها، بطريق سري، بجروحه؛

والإهانات التي تنصبُّ على رأسنا بشبه الضرب، هو يضمها بنوع من الاستثناء إلى الضربات التي نزلت على رأسه؛

وكذلك كلُّ ما يحدث سراً وعلناً. وباختصار شديد، قد ضمَّ المسيح كل ذلك إلى قائمة أوجاعه وآلامه.

لذلك سنتشرف بأن نقف مع صفوف الشهداء بنوع استثنائي، نحن الذين انتهت بنا أواخر الدهور، لأن الله بحث كثيراً في ملفات سهرنا وتنسُّكاتنا وهذيذنا الليلي والنهاري وتأملاتنا في الكلمة المكتوبة والمسموعة، فلم يجد ما يكفي قط لملء سجل كأس الخلاص؛ فارتأى الرب بنوع من المجاملة الزائدة أن يكمل خلاصنا بالآلام، آلامه وآلامنا، وما نقص من كأس الخلاص يضيف إليه أتعاباً وقتية وأوجاعاً زمانية حتى وأمراضاً جسدية. إنْ قُبِلتْ بالشكر، ليتزكى إيماننا.

❖❖❖

لساني يريد أن يهلل ويرتل، ولكن في وقار الأبوة ومحدودية الرسالة، وفي إطار المحبة المكتومة؛ أختم خطابي طالباً لكم ملء المصالحة العظمى لتنطلق قلوبكم ترتل للذي تنحني أمامه ملايين الشهداء بالتسبيح.

اقبلوا محبتي في المسيح.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

التجلي

هل يمكن وهل يصح أن ننطق بهذه الرؤيا؟

ولكن معني "التجلي" في المفهوم المتواضع هو "**تغيير الشكل** Trans-figuration" بالحرف الواحد. إذن، إن كان هذا معني التجلي فهو مطلوب، بل هو أحد مطاليب الرسول بولس «**تغيَّروا عن شكلكم**» (رو١٢:٢).

ولكن ما هي أصول التغيير؟

لا يمكن أن نتغير لنكون على صورة الله خالقنا كما خلقنا، دون أن نسلِّم له الصورة ليصحح أخطاءَها، لأنه يتحتم تغيير مسارها الذي كلنا نعترف به خجلاً. فنحن نسير نحو أنفسنا ولا نخرج عن ذواتنا لنسير نحو المسيح بكل معنى السير نحو البر والقداسة والحق.

ويتضمن هذا السير إلى الخارج إخضاع بكل قَسْر وكل شدة، بل وبكل قسوة، بقيادة الروح القدس قيادةً من أعلى، وعلامتها الدامغة أن **لا يتدخل شخصنا، أن لا تتدخل ميولنا، أمزجتنا، عاداتنا، كرامتنا، شعورنا الشخصي، الأُصول، حقي، دوري**؛ كل هذه المماحكات التي تمنع الروح القدس من أن يستلم القيادة.

والسؤال الغشيم: "**ماذا يبقى لي؟ هل أمشي مغمض العينين؟**"

طبعاً لا. ولكن إن أَخليتَ، حقاً وبالفعل، ذاتك، فحينئذ تستلمك القوة غير الزائفة التي تهيمن على كل الأمور معاً وبصورة سرية، وكأن يداً عليا تمسك وتقود وتهيمن بصورة كلية.

علامات التغيير: أن تأتي بما كان فوق طاقتك:

هنا، التغيير يتم، وبصورة خاصة جداً ودقيقة جداً وسرية للغاية، حيث طاقة التسلُّم، تسلُّم التوجيه والمشورة والأمر، تخرج من أعماق ذاتك، وهي ليست ذاتك.

التغيير يتم بين طاقة التسليم وطاقة التنفيذ، فترى أنك تُنفِّذ أشياءً كان من المستحيل أن تنفذها من ذاتك، ولكن هوذا أنت تنفذها، وكأنك بمحض إرادتك واختيارك، ويُحسب لك ذلك، مع أن طاقة التنفيذ ارتبطت بطاقة أعلى من ذاتك ولكن بصورة سرية خاصة. وأنت ترى بنفسك وفي نفسك أنك تتغير بالفعل، وأنك تعمل أشياءً كنت تشتهيها شهوة وتتمناها وتحلم بها ولكنها كانت فوق طاقتك وإرادتك، وكنت تعجز تماماً عن إتيانها، لأنك كنت تحاول أن تعملها بذاتك، ولكن الآن ها أنت تعملها، ولكن ليس على المستوى الذي يُعمل، فهي أضعف جداً وأقل جداً من المستوى. الأمر الذي تتهلل له، لأنه أصبح سهلاً جداً وعلى مستوى إرادتك.

هذا – ليس من ذاتك –
بل تجلي لقدرة الله العاملة فيك:

هذا هو التجلي، ولكنه لا يمتُّ لإرادتك الذاتية وشخصك الأناني، ولكنه تجلي لقوة الله العاملة فيك، والتي تظهر وكأنك أنت الذي تعمل وتفكر وتريد بكل حرية الروح ودالة البنين.

هذه حصيلةُ حياةٍ، وثمرٌ للبر الذي زرعتَه بدموعك وصلواتك وتوسلاتك للقادر أن يخلِّصك، وهذا هو الرد الإلهي للسؤال البشري. فنحن نسأل في ضعف وعجز، في خزي الخطاة، وأنين الخاطين بالتعدِّي، والذين يكاد أن يكون لهم أمل – بحسب منطق العدل والدينونة. ولكن

الرد الإلهي يأتي بغير انتظار، يأتي فوق المعقول، فوق المنطق، لا يتبع أي حساب من حسابات الناس التي يقيسونها، حتى وبأقصى مقاييس الرحمة. لأن عمل الله في الإنسان الخاطئ لا يمكن أن يتصوره لا الخاطئ ولا البار، لأن الله عظيم بلا قياس، وكريم بلا قياس، ورحيم بلا قياس؛ شيء لا يخطر على قلب بشر ما يعمله الله للإنسان. شيء مدهش حقاً يجعل الخاطئ يفقد خزيه وينفض عنه ضعفه في الحال، وكأنه صار ابناً.

وهو من فيض التواضع الإلهي:

ولكن الذي يُدهش الخاطئ ويدهشنا حقاً، هو كيف يتنازل الله ويجعل هذه التغيرات والتداخلات الواضحة كأنها مِلكنا وقد صارت تخصُّنا وأننا صرنا وكأننا أصحابها. هذا هو تواضع الرب الذي يبهر العقول، هو يتنازل عمَّا له رسمياً لنمتلكه رسمياً. هذا وجه صغير من أوجه التجلي الفائق الإدراك. لأن هذه القيم الجديدة التي تنازل عنها الرب لحسابنا هي أصلاً سمائية، وهي إذ تُمنح لنا رسمياً تجعلنا منتمين رسمياً إلى السماء. أليس هذا عجباً عجَاباً؟

فحينما نقول "التجلي"، وننسبه إلى نفوسنا، نكون كمن يجدف. ولكن الحقيقة أننا نلنا رسمياً، وبيد الرب الإله يسوع المسيح، ما يَنْسِبُنا إلى السماء حقاً، وإن كان من الظاهر كأنه اغتصاب أو سرقة، ولكن ألم يقل المسيح نفسه عن ذلك إنه "غصب" و"اختطاف" « ملكوت السموات يُغصب، والغاصبون يختطفونه» (مت١١:١٢)؟

علامة تجلي النفس، جوعها وعطشها المستمران نحو المسيح:

ولكن رغم كل هذا لا يحق لنا أن نفتخر بشيء من هذا، إذ يبقى

الافتخار بالرب وحده دون سواه «من افتخر فليفتخر بالرب» (١كو١:٣١)، ويظل شعور الإنسان الصادق هو نفس شعور بولس الرسول «أنا ما أنا» (١كو١٥:١٠)، «أحيا لا أنا...» (غل ٢:٢٠). لقد أعطى المسيح نفسه لنا، فأصبح المسيح هو كل شيء فينا؛ ولكن ليس بصورة كلامية بل بالفعل والسلوك. والذي يثبت ذلك عملياً هو جوع الإنسان المستمر إلى الكلمة وعطشٌ لا ترويه الساعات الطويلة في السهر والصلاة.

إن الجوع والعطش، اللذين لا يكفَّان، نحو المسيح، هما المؤشر الذي يكشف حالة تجلي النفس وتَسَرْبُلها بالمسيح: «جيد يارب أن نكون ههنا فلنصنع.. لك مظلة (خيمة، مسكن، هيكل)» (لو٩:٣٣). هذه هي صفة النفس، أو على الأصح، الصفة الدائمة للنفس التي تحيا في المسيح، ونورُ تجلّيه داخلها، حيث الشوق الملتهب لا ينطفئ قط، والجوع إليه لا يكفُّ ليل نهار. ليس من الضروري أن يكون الإنسان عالماً بالروحيات ولا متكلماً ولا كاتباً قط، بل أن يكون جائعاً جوعاً لا يُعبَّر عنه. ألم يقل الرب عن نفسه إنه هو خبز الحياة والماء الحي؟ (يو٦:٣٥؛ يو٧:٣٧،٣٨).

في المعمودية أخذنا حق التجلي أو "لِبْس المسيح"، وعلينا أن نمارس هذا الحق يوميا:

والحقيقة التي لا ينبغي أن تثبِّط عزيمتنا هي، أنه إلى أن يبدأ المسيح عملية التغيير الداخلي ليحلَّ هو محل الذات ويلصقَ بنا صفاته ويُدرجَنا في صفوف المنتظرين دورهم السمائي، نكون في الحقيقة مستوطنين أرضيين، ويكون حنيننا إلى السماء مجرد حنين. والمطلوب أن نلبس الرب من الآن، لأن ذلك حقٌّ أخذناه في جرن المعمودية «لأن

كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غل٣:٢٧). المطلوب أن نمارس السرَّ يومياً، المطلوب أن ينتقل الإيمان بالسر إلى سر الإيمان. هذه الآن فرصتنا. وربما لا توجد بعد قليل.

«إلبسوا الرب يسوع» (رو١٣:١٤). هذا أمر إنجيلي؛ **«ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات»** (تكملة الآية السابقة). هذان نقيضان (لبس المسيح، تدبير للجسد لأجل الشهوات). لقد تكلمنا كثيراً وكثيراً فيما سبق عن الشق الثاني. والآن وفي هذه الرسالة الصغيرة أنحصر، ويا ليتكم تنحصرون معي في الشق الأول: "إلبسوا المسيح". ويلزم من أجل زيادة غيرتنا ورجائنا، أن ننتبه إلى أن "إلبسوا المسيح" جاءت أولاً وقبل "ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات". هذا عجيب حقاً. مطلوب منا **التجلي قبل التخلي!** تعالوا لكي تتصالحوا. مطلوب منا **الرجاء قبل الجهاد**. مطلوب منا **الثقة قبل التنفيذ**. هل فهمتم؟؟

❖❖❖

إلى هنا، وعلى غير عادة، أقتصر في خطابي، لأن القلم عصاني ولم يشأ أن يخطَّ حرفاً واحداً، لعلكم تدركون قوة الكلمات الأخيرة، لأنها هي مفتاح حياتنا الجديدة مع المسيح.

الرب الإله الذي يشتهي أن يسكن قلوبكم يتمم فيكم مشتهاه.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

بين الماضي والمستقبل

بين الأرض والسماء

عشت أيامي أتأمل وأمارس الواقعية في صميم الزمن وعمل التراب، وبالإضافة تمتعت بنوع من التفتح والرضا والشوق الملتهب بالرؤيا الفائقة فوق صميم الزمن وعمل التراب.

وأنا نفسي عجبت لنفسي كيف استطعت أن أربط وأوفِّق بين الحياتين، كلٌّ منهما في عمقها، ومؤدياً واجباتها بعمق تشهد له النتائج. وأريد اليوم أن أنقل لكم شيئاً من هذا الائتلاف والمزج بين الاثنين بفرح لا يُنطق به.

أما الواقع فدائماً كان مُرُّهُ أكثر من هدوئه وسلامه؛ وأما الروحي فكانت حلاوته لا يشوبها مرارة. فسِرْتُ على الأول بدفع من الثاني. لأن الروح إذا انتعش، حمل الجسد ليطير به حيث لا يشاء، ولكن حيث الفرح الذي يدسم شيخوخته المبكرة ومواته الذي يزداد كل صباح. وبالنهاية فإن ديمومة الروح غلبت اضمحلال الجسد، ولم يبقَ في شعوري وفي لاشعوري إلا فرح وسلام مقيم.

والذي أوده من هذا الخطاب هو شيء صعب وعسير، ولكن بمشيئة الله سهلٌ ويسيرٌ، لدرجة وكأنه لا جهدَ بالمرة لمن يخطو بجراءة ليقذف نفسه على المجهول الإلهي بدون أي تحفُّظ أو تأمين سابق.

حدود الإرادة بعد الاختبار:

فالناس أمامي يختارون بمحض إرادتهم: أن يكونوا إمَّا أرضيين، أو

سمائيين. ولكن بعد الاختيار مجرد الاختيار الحرّ، نجد أن كل فريق يسير فيما اختاره كأنه بإرادته، ولكنه يكون في الواقع مدفوعاً بقوة تسيطر على ذاته، حسب ما كتبتُ لكم في الخطاب السابق، لأن الإنسان حرٌّ أن يختار، وبعد أن يختار يُسحب منه الاختيار قليلاً قليلاً ليسير بمقتضى جذب الطريق وأصوله، شاء أو أبى؛ ولكن بصورة تكاد لا تُرى أو تُحس.

فالذي يختار العالم يرحّب به العالم ويُسهّل له الانغماس فيه؛ والذي يختار السماء تجذبه السماء بصورة خفية للغاية، ولكن ملموسة للواعي الذي يكون قد تهيأ للسماء.

ولكن الملاحظ أن الذي ينحاز إلى الأمور الروحية الدينية السمائية، لا يُعدم أن تكون رِجْله على الأرض تسير سيراً حسناً حكيماً، ولكن قلبه وعينيه دائماً مربوطاتٌ بالأمور الروحية. فإذا جاءت اللحظة الحاسمة المفاجئة للاختيار بين الاثنين فإنه، وبدون تفكير، ينحاز إلى السماء وليكنْ ما يكون، ويكون هو الأفضل، لأن وعد المسيح أن الذين يفضّلون ملكوت السموات لا يُعدَمون ميراث الأرض بأي حال من الأحوال.

استحالة الجمع بين الطريقين:

ولكن إذا حاول الإنسان بشيء من الحكمة المصطنعة أن يمسك تماماً بالطرفين، فإنه يستحيل أن يكون عظيماً في الاثنين، لأن عظمة الواحد لابد وحتماً تُضاف على الثاني؛ لأن اختيار الواحد بشدة اختياراً حراً جهاراً هو في الحقيقة جحد للآخر بصورة جوهرية، وجحدُ العالم لا يعبر هنيّاً، فرئيس هذا العالم لا بد من أن يُغرِّم مَنْ يجحده: «إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس» (لو٢٣:٣١)، «في العالم سيكون

لكم ضيق ولكن "افرحوا وتهللوا" (ترجمة دقيقة) أنا قد غلبتُ العالم!» (يو١٦:٣٣).

إثراء الخبرات الخاصة لمن ينحاز للسماء:

والذي ينحاز للسماء علانية، تبدأ خبراته الخاصة تزداد، ويصبح هو عاملاً جديداً في مجموعة الدفع البشري على الأرض التي تشتغل لحساب الأبدية مهما كان دوره صغيراً لأن «الأصغر في ملكوت السموات هو أعظم...» (مت١١:١١). هذا قانون إلهي، وهذه معادلة لا تختلُّ ولا تخفقُ في الإعلان عن ذاتها. بل إن كل فرد ينجح في خبرته يصبح جزءاً حياً من تاريخ حركة الروح المحسوبة بالحساب السماوي وليس بالحساب الأرضي. لقد بدأها المسيح وهو يكمّلها بنفسه، باعتباره كلمة الله الحية عَبْر الدهور الذي به كلّمَنا الله، ولن يكف عن التكلم من خلال أشخاص يعلن فيهم ذاته ويكمل عمله «لأن مراحمه لا تزول، **هي جديدة في كل صباح**» (مرا ٣:٢٢،٢٣).

الكمال المسيحي بين الناس والمسيح:

وفي المسيح قيل: "قد أُكمل"، ولكنها آية مفتوحة كل صباح. فالكمال المسيحي كمال لا ينتهي! كمالٌ مُخصّبٌ بالكلمة يتضاعف ولا ينتهي. ولكن إذا تتبعناه عبر التاريخ ومن خلال الأشخاص، نُصدَمُ، لأن بالأشخاص يتوقف التقليد، ولكن بروح المسيح يمتد ليتجاوز الأشخاص والتاريخ.

في الناس نحسُّ بالماضي، وفي المسيح نمتد إلى المستقبل المشرق الذي لا يتوقف ولا لحظة واحدة!

والماضي يحمل دائماً حنيناً ممزوجاً بمرارة، أما المستقبل فهو مشرقٌ مع

الرجاء.

الماضي هو من صُنع الإنسان، أما المسيح فكل ما صنعه هو هو المستقبل بعينه. لذلك إذا نظرنا إلى الماضي نتحسر ونفقد رجاءنا، وإذا رفعنا أعيننا نحو المستقبل نتجدد قوة.

الماضي أرضيٌّ، والمستقبل سماوي. والمسيح ليس فيه ماضٍ، بل هو هو أمس واليوم وإلى الأبد كله أمل ورجاء وحياة وفرح.

نشكر الله أن كلَّ واحد منا يتحرك من الماضي إلى المستقبل حاملاً بين ضلوعه أحزاناً ميتة ورجاءً حياً، وهذا هو مبدأ بولس الرسول المشهور «أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام لعلي أدرك (المستقبل) الذي لأجله أدركني أيضاً المسيح يسوع!» (في٣:١٣،١٢)، «أي الجُعالة (المكافأة) العليا» (في٣:١٤)، ورجاء الحياة الأبدية (تي١:٢؛ ٣:٧)، «وإكليل المجد» (١بط٥:٤).

القديسون عاشوا في المستقبل المشرق:

والعجيب، أيها الأحباء، أن القديسين الذين عاشوا - مستبشرين - في صميم المستقبل ولم يلتفتوا إلى ماضيهم، مثل العظيم بولس، هؤلاء تخلدوا وخلَّدوا أجيالهم معهم؛ بل وخلَّدوا كلمة الحياة؛ ورفعوا قيمة وجودهم وأعمالهم إلى مستوى الخلود أيضاً. أما الذين عاشوا في حسرة الماضي، فهؤلاء أكلهم الماضي ولا ندري عنهم شيئاً، ولا هم مخلَّدون.

فماذا تختارُ وإلى أي فريق تلتحق؟ هل بالذين ينظرون إلى خلف بشبه امرأة لوط؟ أم بالذين يتطلعون إلى وجه يسوع في السماء بشبه بولس الذي انفتحت عيناه وقلبه وسمع صوتاً من فم المسيح رأساً، مع أن ماضي امرأة لوط كان أفضل من ماضي شاول؟

والعجيب أن العالم لا يزال يعجُّ بمن اتخذوا موقف امرأة لوط

وجلسوا يتحسرون على الماضي، فتجمدوا وفقدوا رجاء المستقبل. أما الذين يتطلعون إلى المستقبل بشغف ويقين، فهم قِلَّةٌ، ولكنهم أنوار في جيلهم.

نحمل أجمل ما في الماضي، ونسرع نحو المستقبل:

حقيقة أخرى أكشفها أمامكم. إن من كثرة التطلع إلى الماضي، حتى عندما يكون الماضي ذا مآثر وفي أوج الإيمان، فهذه النظرة المثبتة في الماضي تُفقِدُنا أمل الحاضر ورجاء المستقبل، فننحصر في أنفسنا وكأنه لا يوجد ولن يوجد إيمان على الأرض. هذه خدعة النظر إلى الخلف، مهما كانت ذات وجاهة وأسباب تبدو صحيحة من جهة التاريخ.

فالمسيحية، أيها الأحباء، هي زحف متواصل إلى الأمام ونسيان متواصل لِمَا فات. أُنظروا وتأملوا هذا المبدأ جلياً لئلا يفوتنا قطار بولس الرسول السريع الذي يشقُّ عُباب التاريخ منطلقاً إلى السماء. نحن لا نجحد الماضي بل نحمل أجمل ما فيه ونُسرع نحو المستقبل، لئلا يأكلنا الزمن ونحن جالسون في «مناحة مِصْرَايم» (تك٥٠:١١) ننوح على الذين ماتوا، أو نبكي بكاء راحيل على أولادها التي لا تريد أن تتعزى لأنهم ليسوا بموجودين (إر٣١:١٥).

انتبهوا إلى روح الإنجيل: نحن أبناء نور ولسنا أبناء ظلمة. النور يعلن دائماً عن المستقبل، عن يوم جديد، عن شهر جديد، عن أمل جديد، عن فرح جديد. أما الظلمة فهي رمز الماضي المتقهقر إزاء النور الذي أضاء في الظلمة وبدَّدها.

الله يُعبِّر الإنجيل عنه بأنه «نور» (١يو١:٥)، والمسيح هو "نور العالم"، هو مستقبله وليس ماضيه. ارفعوا أعينكم إلى هذا النمط الرائع من

تصوير الحياة: **الحياة نور والظلمة موت**. نحن أبناء حياة والحياة رجاء. كلُّ قديس من قديسي الماضي غَلَب الظلمة وانضم إلى نور المسيح، نور المستقبل الذي تزحف نحوه البشرية جمعاء تحت قيادته، لذلك عُبِّر عن القديسين أنهم أنوارٌ في جيلهم، كانوا يمثّلون المستقبل المتجدد الذي لا يشيخُ أبداً.

التجلي نورٌ، ووجه المسيح نورٌ:

تكلمت معكم في الرسالة السابقة عن "التجلي"، **والتجلي نور، والنور لا ينقسم**. النور مِلْكٌ لكل من يراه، وكلُّ من يراه يستنير وينير. أما الظلمة فهي مِلْكُ صاحبها.

الظلمة التي تمثل الماضي هي في أبسط صفاتها وأهونها **عدم رؤيا**. كلُّ إنسان يعيش في الظلمة يتخبط في ذاته. ولا يشترك اثنان في ظلمة واحدة أو ماضٍ واحد! الظلمة تمثل التفتت والانقسام.

فالآن، أيَّةَ نصيحةٍ أقدمها إليكم بعد هذا كله إلاَّ أنْ افتحوا عيون قلوبكم واستبشروا بالمستقبل السعيد، والنور هو لكم وأنتم له. إملأوا عيون قلوبكم من وجه المسيح كمثل بولس، لتسقط قشور الماضي، ولتروا مقدار المجد المعدِّ للقديسين الذين نسوا ما هو وراء، سعياً للأمام في المسيح، رجاء من يحمل العاجز والمقعد والأعرج والأعمى والشقي والبائس والفقير والعريان، يسوع المسيح حامل البشرية المتعبة، تعالوا «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين» (مت١١:٢٨)!

❖❖❖

وفي الختام أهديكم محبتي في المسيح، آملاً ومتيقناً أن كلمة الرب مقبولة عندكم، وأنكم أبناء نور منذ الآن، **أبناءُ نهارِ الأبدية** الذي لا غروب له.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

نحن والقديسون والزمان

لأول وهلة حينما نفكر أو ندرس حياة القديسين، نجد أن الزمن السحيق يعترضنا بشدة، ويُلقي ظلاله القاتمة على خبرة هؤلاء المتقدمين عنا في الإيمان والتقوى وأعمال المحبة الحارة.

ولكن لكي نعيد الصلة بيننا وبينهم يلزم أن ندرك أن كل هؤلاء القديسين يرتبطون **بالأبدية** التي نرتبط بها نحن الآن تماماً، وظروف الأبدية بل وشروطها واحدة لا يفرّقها زمن ولا تُباعد بينها السنين.

فخبرة القديس أنطونيوس التي تسجلت له، لم تتسجل في السماء على مستوى الزمن بل تسجلت في الأبدية، وكذلك القديسون باخوميوس ومقاريوس وماريا الناسكة والأم سارة، وسائر القديسين بلا استثناء.

فإذا استطعنا أن نستوعب هذه الحقيقة، فإننا ندخل في الحال إلى زمرة هؤلاء القديسين، ولا يصير أي عمل تقويٍّ أو سلوك حُبِّي بُطولي غريباً عنا، وكأنه من صُنع الزمان أو البيئة. فالعمل الروحي لا يُقاس لا طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً على الأيام والسنين، ولكن على قامة المسيح الثابتة في ذاتها المتحركة فينا للملء: «ملء الذي يملأ الكل» (أف١:٢٣)

على هذا المستوى يلزمنا أن نقرأ سير القديسين كأحياء يكمّلون قامة روحياتهم في البر اللانهائي والقداسة والحق في الله الذي لا نهاية له، لحسابنا أيضاً كلما استحثثناهم للشفاعة عن ضعفنا. نحن لا ننكر أنهم عاشوا في الماضي، ولكنهم باتصالهم بالمسيح والأبدية أحيوا الماضي وجعلوه خبرة حاضرة ومستقبلة لنا وللآتين بعدنا، هذا شأن بني الملكوت لأن الملكوت داخلكم، وداخلهم المسيح، ولم يَعُد زمناً مات

ومضى وانقضى.

الذي يصادق القديسين، يصادق الأبدية ويحيا المسيح، لا من خلال إحساس زمني، بل من خلال حب ملتهب لا يعرف الزمن ولا يعرف الموت.

أما دليلي على ذلك فهو الفرح الذي يتولَّد فينا من عِشْرة القديسين. والفرح آية النعمة، والنعمة آية المسيح. وكل ما يأتي من المسيح يأتي من الخلود، ويضحك على الزمن طال أو قصر، لأن الزمن زوالٌ، والزوال فيه حسرة وفيه موت. وحتى الماضي والموت والحسرة على الماضي لم يتركها المسيح دون شهادة حيَّة ووجود حي، فلا يوجد وجود قط زمني أو مكاني لا يشهد للمسيح «فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية، وهي تشهد لي» (يو٥:٣٩).

وهكذا احتفظ الماضي بالحياة الأبدية قائمة شاهدةً للمسيح، هذا هو الماضي بالنسبة لنا. فنحن نبحث في الماضي عن حياة أبدية، والحياة الأبدية هي هي أمس واليوم وإلى الأبد.

وهنا أنبِّه ذهن الساعين إلى الملء أن الزمن ليس عاملاً مساعداً ولا هو عامل غير مساعد، فالحياة الأبدية تعلن عن نفسها في كل زمان ومكان بكل ملء المسيح بلا مانع. وحينما تتقابل الخبرات، يتساقط الزمن ويتعانق المثيل بالمثيل، وتولد الحياة، ويتجدد وجه الأرض، وتتكامل البشرية على صورتها الأولى.

إن ساعة الصلاة الحرة الواعية الناشطة هي ساعة أبدية، تتقابل فيها الخوارس الأرضية والسماوية في نُطق الحق، وتمارس خدمة الملكوت، والمسيح قائم يوزع العطايا ويمسح الدموع ويُعدُّ القلوب الحزينة للفرح الذي لن يُنزع منها. إنها وعود صادقة يتذوقها الذين يحبون الصدق والذين يجرون وراء تحقيق المواعيد ويطلبون دائماً أبداً سرعة مجيء

الرب. إنهم دائماً يظهرون وكأنهم لا يمتُّون إلى زمانهم، إذ يسعون ليكونوا على شكل الأوائل، مع أنهم كانوا بالفعل نتاج عصرهم، لأن انتماءهم للملكوت يوحِّد من شكلهم ولغتهم بصورة إعجازية.

ولكن إن أردتم أن تعرفوا أكثر سرَّ **وحدة القديسين** في مبادئهم وسلوكهم وحبهم، بل وفي وجودهم الآن في خورس واحد منسجم، لكي تنالوا ما نالوا، ويكون نصيبهم نصيبكم، هو أنهم كانوا «ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمِّله يسوع» (عب١٢:٢)، أي أنه كان لهم اتجاه واحد للرؤيا لا يحيدون عنه، خاصة من جهة الآلام والتعيير والتشهير إذ كان لهم سلوك مشهود لهم: «صائرين **شركاء الذين تُصرَّف فيهم هكذا**» (عب١٠:٣٣).

- «في الأيام السالفة التي فيها بعد ما أُنرتم صبرتم على مجاهدة آلام كثيرة، من جهة مشهورين بتعييرات وضيقات...» (عب١٠:٣٢،٣٣).
- «... وقَبِلْتم سَلْب أموالكم بفرح عالمين في أنفسكم أن لكم مالاً أفضل في السموات وباقياً، فلا تطرحوا ثقتكم التي لها مجازاة عظيمة، لأنكم تحتاجون إلى الصبر حتى إذا صنعتم مشيئة الله تنالون الموعد» (عب١٠:٣٤،٣٥).

ولكن ذلك كله ليس من فراغ، بل هو طبق الأصل مما عاناه المسيح: «ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمِّله يسوع، الذي من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب **مستهيناً بالخزي** فجلس في يمين عرش الله. فتفكَّروا في **الذي احتمل** من الخطاة **مقاومة لنفسه مثل هذه لئلا تكلوُّا وتخوروا في نفوسكم**» (عب١٢:٢،٣).

إذن، أيها الأحباء المختارون، إن وحدة ظهور القديسين في خوارس متحدة الأشكال والجمال لا يرجع إلى قوام أجسام ولا ألوان ملابس، لكن إلى أنواع آلام وأنواع تعاذيب ونوع صبر واحد، هذا هو ما

أعطاهم المنظر الواحد المبهر للنظر، وهالة النور التي تخطف الأبصار، هذه هي الأوسمة التي خرجوا بها من هذا الدهر متحدين.

أما ختم بنوَّتهم للآب فهو يسوع المسيح نفسه الحامل في جسده لعنة الإنسان، كرأس عائلة، دفع الثمن لبراءة أفرادها.

ولكن المسيح الآن يبدو في السماء منهوك القوى بسبب نزاع الأشقاء، لأن جراح الفُرقاء لا تزال تنزف من جسده. ولكنه لا يزال يحمل الألم الموضوع عليه من أجل سرور المصالحة الموضوع أمامه كأمل قادم ستُحتِّمه الآلام القادمة. والذي يفوت علينا الآن ويسبب لنا خسارة عظمى، هو مبدأ الملكوت الرسمي الذي يعلن عن نفسه ليل نهار وليس من يسمع، لأن كل من على الأرض فقدوا آذانهم: يتحتم أن نأخذ المسيح قبل أن نعمل أعمال المسيح، «أما نحن فلنا فكر المسيح» (١كو١٦:٢)، ويتحتم أن نكون صالحين لنعمل الصلاح، ويلزم أن نكون أحباء قبل أن نحب، ومن المستحيل أن نتوب قبل أن نبيع، ولا أحد يدخل الملكوت إلا إذا باع. وبالاختصار فإن قانون الراجعين إلى الله قانونٌ موحَّدٌ يجعل كلَّ ذوي الشكل الواحد في بيت، ويجعل لهم من تخصصاتهم الأولى مواهب تفوق العقل والمعقول، وهذا هو سر الخلق الجديد.

"أنتم نور العالم"، "الخميرة الجديدة"، التي يتوق إليها العالم، هذه هي روح المسيحية، هذا هو سر الإنجيل، ولكن في نفس الوقت هي الآن الحقيقة الضائعة، وبشيء من الجهالة أو الضلالة ظننَّا أنها كانت وليس الآن، وبجهالة وضلالة اعتقدنا أنها أصبحت في ذمة التاريخ أو سِمة من سمات عصر انمحى، وليس له الآن وجود، مع أن تأكيد صاحب الإنجيل صريح: «ها أنا معكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر» (مت٢٠:٢٨). أين

هذا الوعد؟

وإن أعظم سمة من سمات هذا العصر الذي نعيشه هو أن الإنسان مسئول عن الإنسان، الله استودع شعلة النار قلب الإنسان: «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها»! (مر١٥:١٦)، «اذهبوا تلمذوا الأمم وعلموهم... وأنا معكم.» (مت١٩:٢٨و٢٠)

التقصير الآن يقع على عاتق الإنسان، الشعلة متَّقدة، ولكن الأيدي مرتخية والرُكب مخلَّعة والأفواه مكمَّمة لا تقوى على تسليم النور. «النور معكم زماناً قليلاً» (يو٣٥:١٢)، و «من ليس له فالذي عنده يؤخذ منه» (مت١٢:١٣). لأن تسليم الشعلة الإلهية لا يحتاج إلا إلى حرارة مشتعلة «أذكِّرك أن تضرم موهبة الله التي فيك» (٢تي٦:١).

من هذا كله أيها الأحباء ترون أن الضرورة موضوعة علينا خُلواً من الزمان والمكان، ولا عذرَ من أي نوع يمكن أن نعتذر به.

إن أردنا التوبة، يلزم أن نبيع؛

إن أردنا الحرارة، يتحتم أن نضرم المواهب التي تعطلت فينا بلا سبب،

إن أردنا المسيح نفسه يلزم أن نطلبه نفسه،

إن أردنا أن نحب، يلزم أن نكون أبناء ذوي شكل واحد، لا نميِّز أنفسنا لا بالأقل ولا بالأكثر، لأننا أبناءٌ بالتبني وليس لنا فضل في ذلك.

إن أردنا أن نكون قديسين فلنصادق القديسين وننضم إلى خوارسهم سرّاً وعلناً - نحن أسأنا إلى أنفسنا لأننا أبعدنا الله والقديسين والمواهب والكنيسة الحية عنا، وجلسنا وحدنا نندب حظَّنا مع أن دعوتنا قائمة الآن وبلا تأخير معهم وبهم وفيهم.

الأمر خطير الذي أطرحه اليوم عليكم أننا بدون القديسين لا يكون لنا كيان، إذ يستحيل أن يكون لنا كيان مستقل عن القديسين، أقصد

الكنيسة الحية المنظورة وغير المنظورة. بل أن نرى أنفسنا معهم في هذا الموكب العظيم الذي يقوده المسيح. وبعيداً عن هذا الموكب لا يوجد إلا نجوم تائهة، كما يحلو للرسول يهوذا أن يسميها (رسالة يهوذا عدد ١٣).

والرسول يعقوب يَسْتَبِق الدينونة القادمة ويحثنا بمحبة فائقة قبل فوات الأوان، أن كل من تُعوزه الحكمة فليطلب من عند أبي الأنوار الذي يعطي بسخاء ولا يعيِّر، حتى تكتمل فينا مواهب الاختيار وحتى لا نكون ناقصين شيئاً عن شكل القديسين ومواصفاتهم. آه لو أُعطيت لنا مرآة القديسين لننظر فيها الآن إلى أنفسنا، لانـزعجنا جداً لأن أشكالنا مشوَّهة، لا الشكل الخارجي بل شكل الروح ووداعتها، على ضوء صفات المسيح وتهذيب الروح القدس، الذي يئن فينا متوسلاً أن نقبل ما لروح الله وألا نعاند، لأن الله لا يريد أن يأخذ شيئاً مقابلاً، فهو يعطينا ما ينقصنا، فماذا يكون عذرنا؟

علماً بأن أي تمسُّك بالتراب سيحرمنا من كل ما للسماء.

إبدأوا بالخطوة الأولى: «اقتربوا إلى الله فيقترب إليكم» (يع٤:٨) - وإن شئتم صراحة أكثر، فإن اسمها **"حرب الخطوة الأولى"**، فإنها حرب معلَنة حتى تتوهوا عن هذه الخطوة الأولى لتسيروا في شعاب مزخرفة ومحلاَّة بالمجد الذاتي، يلفُّها زركشة الكبرياء والاعتداد بالذات والعناد بسببٍ وبدون سبب، والتصلُّب وطلب الكرامة، ثم بعد الخطأ يأتي صغر النفس واليأس أو الاستهتار ثم ترك كل شيء والنوم، وكلها مشتبكة معاً فلا تستطيعون أن تعرفوا أولها من آخرها.

ولكن اطلبوا الرب، باتضاع، وبعزم القلب، مع التصميم بكل عناد على النطق بكلمة "أخطأتُ"، مع ترديد كلمة "الرب رحيم" وهي كالسيف البتَّار لقطع رقبة العدو، واضعين في قلوبكم «أنا السيد والمعلم قد غسلتُ أرجلكم» (يو١٣:١٤)، «**كما أن ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدم بل ليخدِم**» (مت٢٠:٢٨)، «**كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً.**» (يو١٣:١٥)

ولا تنسوا أن كل واحد فيكم قد استؤمن على خدمة سيده وأولاد سيده، وسيده هو المسيح وأولاده هم جميع الناس (الرهبان، وجميع العمال، وجميع الضيوف) بلا تفريق. والقداسة هي للجميع، وهي أرخص ما يمكن على يد شاهدين، وهي تُشترى بالاتضاع، والمسكنة، والبذل، والاحترام الشديد، وتفضيل كلمة الآخرين ورأي الآخرين، ونسبة أخطاء الآخرين إلى نفسي، وتبنِّي أخطاء الإخوة، والعفو السريع عن المعتدين، وفي النهاية اعتبار الجميع قديسين إلا أنا. (أي تكريم وإقامة كلمة الله أولاً، ثم الآخرين، وآخر الكل أنا).

❖❖❖

وختاماً أهديكم سلاماً عاطراً بحب الآباء القديسين.

واقبلوا ضعفي، كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

غاية الحياة المسيحية

نوعان من الحياة في خلقة الإنسان:

منذ خلق الله الإنسان، والإنسان يحيا نوعين من الحياة:

حياة خاصة في نفسه نسميها حياة التفرُّد، وهي التي يخلد فيها إلى نفسه، ويتحدث مع خالقه، منجذباً إلى الله انجذاباً طوعياً؛

وحياة عامة تجاه الآخرين، وهي التي فيها يتعامل مع الناس بكل صنوفهم، من أصدقاء وأعداء، أهلٍ وخصوم، أسرة وكنيسة، وكلّ أفراد المجتمع الذي يأخذ منه ويعطيه.

والذي نلاحظه أن عناصر كل نوع من الحياتين ليست عوامل مضافة إلى خلقته، ولكنها كوامن هذه الخلقة وصفاتها الغريزية المنغرسة فيها.

الحياة الأولى: الخلود إلى النفس والحديث مع الله (حياة التفرُّد):

فالإنسان في خلوده إلى نفسه وفي حديثه مع الله في حياته الخاصة، لا يأتي ذلك افتعالاً أو تغصُّباً، إنما انجذاباً بدافع صلة أساسية تشدُّ النفس إلى مصدر وجودها وخلقتها. لأن الإنسان، حقّاً، مخلوق على صورة الله، والصورة تَنْـزِع نحو أصلها، وهي في نزوعها الدائم المكبوت نحو الله تحاول أن تتغير لتصير بحسب خالقها، بنداءٍ خفي يدعوها إلى ما هو أفضل دائماً ويحاسبها على ما هو أردأ؛ وهذا يكوِّن هدفاً أصيلاً للنفس، تسعد به مهما كان إخفاقها في تحقيق الكمال منه، وتبتئس عند البعد عنه أو عند تجاوُزه وإهماله بؤساً مريعاً، قد تحسه النفس وتعرف سببه، وقد تعيشه دون أن تعرف سببه ومصدره. فالله مصدر سعادة

حقيقية للنفس ولكنه مصدرٌ غير مُعلَن إعلاناً خارجياً؛ تحسه النفس ولكن لا تستطيع أن تفصح عنه، بل وقد تتأثر به وهي لا تزال تجهله.

إذن، فالحياة الخاصة، أي حياة التفرُّد والخلود إلى السكون الداخلي والاقتراب من الله، هي هدف أصيل من أهداف الحياة بل ومن أهداف خلقة الإنسان ذاتها، لكي يعيش مع الله ويحيا معه الحياة الأبدية.

فغاية خلقة الإنسان أن يعيش مع الله، وهذه قد ابتدأ بها بالفعل. فآدم أولاً — ثم آدم وحواء بعدئذ — كان يعيش مع الله ويحيا في حضرته، يستمع إليه ويطيعه وينفذ أوامره. وهو وإن كان قد فقد هذه الحياة، إلا أنها باقية في صميم خلقته، لأنه فقدها زمنياً ولكن لم يفقدها من كيانه.

ونحن لو درسنا الكتاب المقدس على ضوء هذه الحقيقة لوجدنا أن جميع حوادثه ووصاياه وتعاليمه في تدرُّجها وامتدادها منذ أول معاملة مع الله تنصبُّ كلها في كيف يعيش الإنسان مع الله: «سِرْ أمامي وكن كاملاً» (تك ١:١٧)، «يا ابني أعطني قلبك، ولْتُلاحظ عيناك طرقي» (أم ٢٦:٢٣). ولكن لما أُعيي الإنسان وأخفق تماماً في أن يلتزم بالحياة مع الله، جاء المسيح ليرفع كل العوائق والحوائل التي تحول دون ذلك، وقدَّم نفسه وسيطاً بين الناس والله — عَبْرَ دمه — بل عَبْرَ شخصه أيضاً، فأعاد إلى الإنسان هدفه الأسمى هذا، مؤمِّناً عليه بعهد دم — أي هدف الحياة الأبدية مع الله كغاية عظمى للحياة. ثم صار لنا الروح القدس كمعلِّم ومُربٍّ، لو أطعناه.

قدرات الحياة مع الله موجودة في صميم خلقة الإنسان:

ولكن طبيعة الحياة مع الله خاصة جداً؛ ومنهج السلوك في حضرته ذو سمات معينة؛ والحواس المنوط بها سماع صوته والانتباه إلى تحذيراته ورؤية أعماله وتصرفاته دقيقة جداً وخاصة جداً. وبالاختصار، فإن

طريق الله يحتاج إلى حساسية وشفافية معينة، ليست أبداً كالتي نسلك بها في الحياة الدنيا.

كلُّ هذه الخصوصيات وهذه النوعية المعينة من القدرات موجودة بذورها كامنة في الإنسان، فهي ليست غريبة كلياً عن طبيعة الإنسان التي خلقها (الله) أصلاً لتسمع له وتستجيب وتحيا في حضرته وتنعم بتنعماته، ولكن الفرق بين الحواس الأرضية وتلك الروحية شاسع للغاية.

ولكي أصوِّرها لكم تصويراً حسياً أعود إلى تجربة خروج الإنسان من دائرة الجاذبية الأرضية وانتقاله إلى حياة الفضاء المسماة "الحياة في اللاوزن"، حيث يزن جسم الإنسان في الفضاء صفراً من الجرامات. هذه النوعية الغريبة من الحياة ينتقل إليها الإنسان بعد اختبار معين ثم تداريب مضنية وشاقة للغاية وعديدة في أنواعها ليستطيع أن يتكيَّف للحياة الجديدة.

هكذا تماماً يكون الانتقال والتغير من الحياة الجسدية الحسية ذات اللهو والمرح، والامتزاج بالمادة والتعلُّق بها، وتعاطف الإنسان وحواسه بمسراته الأرضية الخاصة وتعلُّقه بأهله وصحبه تعلُّقاً يفوق أحياناً حد المعقول، ثم انفعاله بالغضب والحقد والعداوة والضراوة والشراسة والقسوة تجاه معارضيه أو أعدائه وخصومه الأشداء، إلى حياة الروح والسكون والخلود إلى الله استماعاً وحديثاً، وتعاطفاً وحباً وعشقاً، والاستجابة لصوته بسماع خاص ووعي خاص. وباختصار، يتحتم على الإنسان الذي اختار الحياة مع الله أن يتوافق في النهاية توافقاً تاماً مع هذه الحياة أخذاً وعطاءً.

هذه القدرات للحياة مع الله هي الحواس الروحانية الداخلية:

هذا يسميه الروحيون وكل من اشتغلوا بالروح واشتعلوا بحب المسيح وانحازوا للحياة الأبدية وفضَّلوها على الحياة الحاضرة وغلَّبوها عليها طوعاً واختياراً، يسمُّونه "انفتاحاً على الله" أي انفتاح الحواس جميعاً وما هو فوق الحواس فتتكون لديهم حواس أخرى جديدة يتكلم عنها المسيح صراحة بقوله: «من له أذنان للسمع، فليسمع» (مر ٤:٨).

فبالرغم من أن لكل الناس آذاناً يسمعون بها، ولكن المسيح هنا يتطلب آذاناً تسمع صوته السري الداعي للحياة الأبدية. وفي موضع آخر ينعي أشد النعي على الذين فقدوا حسَّ السمع والنظر والفهم الروحي واكتفوا بالحواس الأرضية التي تعيش بها المخلوقات الأخرى غير الإنسان: «مُبصرين لا يبصرون، وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون» (مت ١٣:١٣). هنا واضح أشد الوضوح أن المسيح يقصد نظراً داخلياً، وسمعاً داخلياً، وفهماً داخلياً، لدعوة الله القلبية التي ينادي بها كلَّ إنسان نداءً خاصاً به وحده.

هذه هي **الحواس الداخلية الروحانية** المعدَّة لفهم وإدراك معاملات الحياة الأبدية وهي التي تؤدي إلى تغيير جذري في الحياة الأرضية لحساب ملكوت الله، يشير إليها المسيح إشارة اللوم والإنذار بالحرمان من هدف الإنسان الأعظم في الحياة بقوله:

✦ «قلب هذا الشعب قد غلظ، وآذانهم قد ثقل سماعها، وغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم، ويسمعوا بآذانهم، ويفهموا بقلوبهم، ويرجعوا فأشفيهم» (مت ١٣:١٥).

إن حديث المسيح هنا يكشف عن تعمُّد من طرف الإنسان في سدِّ المنافذ الروحية الموصلة لصوت الله إلى قلب الإنسان وتجاهلها والسلوك تجاهها سلوك العناد والمقاومة والإنكار والشك والرفض والاستهانة؛

كما يُفهم من كلام المسيح ضمناً كيف يصرُّ الله ويُلحُّ على الإنسان ليبلِّغه صوته، لا بحاسة واحدة فقط ولا بطريقة واحدة فقط، ولكن بحواس وطرق شتى من خلال القلب الروحي والأذن الروحية والعين الروحية، وهذه كلها تشير إلى تعدد الطرق والحواس التي هيَّأها الله للإنسان، **كلِّ إنسان**، ليسمع صوته الخاص ويستجيب لدعوته الخاصة جداً للحياة معه، ليخضع ويتوب ويتغير ويعود ويحيا.

والحديث هنا كله منصبٌّ على كلمات ومناظر ورؤى تختص بحياة أخرى تماماً غير تلك التي يحياها الإنسان، تتدرب عليها الحواس وتتمرن على أسرارها وعلى متطلباتها، وهي تأتي قليلاً قليلاً في نموها وتدرُّجها كنمو حياة الإنسان في قاماته الجسدية، ولكنها وفي كل مراحلها تأتي يقينية لا يمكن للنفس أن تتغافل عنها إلا بعمى متعمَّد ومقاومة واعية.

حياة التفرُّد الروحي هذه هي للجميع بلا استثناء:

فيلزم هنا التنبيه بشدة أن التكلم عن حياة التفرد أو الحياة الخاصة أو الحياة الداخلية مع الله وحده لا يُقصد بها حياة العزوبية أو الانعزال الفردي. فحياة التفرُّد الروحي والخلود إلى النفس مع الله قائمة في الإنسان، كلِّ إنسان؛ ولازمة للإنسان، كلِّ إنسان؛ وهي هدف أعظم للإنسان، مهما كان، سواء كان أعزبَ أو متزوجاً أو راهباً أو متوحداً أو ناسكاً.

الحياة الثانية: حياة التعاون مع الآخرين [لا تتنافى مع الحياة الأولى]:

والله نفسه لم يُقْصِر حياة التفرد الروحي على وضع الفرد الطبيعي بل تجاوز هذا التفرد تجاوزاً واضحاً صحيحاً، حينما قال: «ليس جيداً أن يكون آدم (الإنسان) وحده، فأصنع له معيناً نظيره» (تك ١٨:٢)، أي أن

الغاية الروحية للإنسان تتجاوز الغاية الطبيعية الجسدية له.

والهدف الطبيعي للحياة الإنسانية، وهو التعاون بكل صوره سواء في إنجاب النسل أو جهاد العمل أو احتمال المشقات أو كشف الغوامض أو مجابهة المخاطر، هذا الهدف الطبيعي للحياة الإنسانية لا يقف حائلاً ولا عائقاً لاقتناص الفرص والأوقات لحياة التفرد الروحي والخلود إلى الله باعتبار أن هذا هو الهدف الأعظم والأهم والأبقى.

ويُلاحظ أن حياة التعاون لم تأتِ في خلقة الإنسان إلا تاليةً لحياة التفرُّد. وحينما أوردها الكتاب لم يوردها لتنفي حياة التفرد الروحي، لهذا لم تأتِ بصورة النفي القاطع المطلق بل بالنفي المخفف «ليس جيداً» (تك ١٨:٢). وبعبارة أخرى نقول إن الفرد له غاية روحية أعظم في حياته الفردية الخاصة مع الله، وهي تأتي حتمية وضرورية، ضرورة الحياة نفسها، ودعامة أولى للخليقة ليعيش الإنسان أولاً وأخيراً مع الله. أما حياة التعاون فهي تأتي لإخصاب الحياة الأرضية وتسهيل مهمتها، فالأولى أبدية والثانية زمنية.

هذه الحياة الثانية (علاقة الإنسان بالآخرين) لها هدف وغاية روحية:

ولكن من الأمور الهامة جداً والتي من أجلها أيضاً كُتبت هذه المقالة، توضيح أن الحياة الجماعية للإنسان، أي علاقة الإنسان بالآخرين، لها هدف ولها غاية روحية أيضاً لا تقل بأي حال من الأحوال عن الغاية والهدف الروحي الذي يعيش له الإنسان في حياته التفرُّدية الخاصة مع الله!!

فإن كانت حياة التفرُّد التي يخلو فيها الإنسان مع نفسه ومع الله هي توطئةً ومدخلاً للحياة الأبدية التي سيعيش فيها الإنسان مع الله، وغيابها أو إهمالها أو فقدانها يعني فقدان الحياة الأبدية. فالحياة الروحية

التي يتعامل بها الإنسان مع الجماعة أو علاقة الإنسان الروحية بالآخرين هي **تجسيد لملكوت الله في صميم الزمن وعلى الأرض**. وإهمالُها أو التغاضي عنها أو رفضُها هو بمثابة تعطيل لاستعلان ملكوت الله، ومقاومةٍ علنية واعية لتكميل مشورة الله من أجل استعلان حكمته لصالح الإنسان، هذا الملكوت الذي من أجله نصرخ كل يوم وفي كل صلاة: «ليأتِ ملكوتك. لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض» (مت ٦:١٠).

الارتباط بين الحياتين (الحياة الخاصة والحياة العامة):

وواضح أن علاقة الهدف الأول في الحياة المسيحية وهو الاستعداد للحياة الأبدية مع الله، مع الهدف الثاني في الحياة المسيحية وهو تكميل مشورة الله وتجسيد ملكوته واستعلان حُكْمِه، هي علاقة صميمية. فالقِيَم الروحية العليا التي يكتسبها الفرد من تفتُّح وعيه الروحي في علاقته الخاصة بالله يكملها ويوظفها ويحققها عملياً في علاقته بالآخرين.

فعلى سبيل المثال، إذا كنا قد اكتسبنا في علاقتنا الفردية الخاصة بالله حاسة الحب الخالص وذُقنا بالفعل جوهر هذه الصفة الإلهية الفعالة التي تخرج بالذات عن اتزانها وحتى كيانها حين يصبح الحب الإلهي أحد المعطيات الغلاَّبة، فإن النفس في تعاملها مع الآخرين توظِّف هذه الحاسة، لا طوعاً فحسب، بل انغلاباً، فتحبَّ دون أن تميز كثيراً في حبها، إذ تحب فوق المعقول حباً لا يمتُّ لواقع هذا العالم ولا لاستحقاق المحبوب، بل قد تحب حتى الخصوم، لأنها تحب دون أن تنظر إلى مقابل، فتحب بلا تحفظ وبسخاء، وربما تفرِّط حتى في الذات نفسها. فالحب المكتسب من الله يخترق كل المعوقات. حتى العداوة نفسها يخترقها بسهولة ودون مجهود يُذكر، إذ تكون الذات طوع الله، سريعة التحرك،

حسب نص الآية: «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم» (مت ٥:٤٣)، إذ يشعر الإنسان أن تيار الآية يسري داخل قلبه وعقله وجسمه كفعل النار، تستجيب له النفس عن فرح ورضا حتى "الجنون" كما قد يتراءى للناس أنه "جنون".

هو الحب الإلهي، يتغلغل الحياتين، ويكمل الهدفين ويكمل خطة الخليقة والخلاص:

جوهر الحب الإلهي هذا، الذي سَرَى في النفس وملأها بالشبع والفرح، قد أنشأ في الإنسان عملين روحيين أكملا هدفين روحيين أساسيين: الأول يختص بحياته هو مع الله، والثاني يختص بملكوت الله.

وهكذا، فإن الحياة الروحية الأولى، أي الحياة الخاصة الفردية مع الله، أنشأت حياة عملية روحية صحيحة مع الناس. وهكذا، فالصفات الروحية الخاصة والداخلية للفرد أكملت صفات روحية أخرى خاصة بالآخرين، وبدون عناء، لأن جوهر الفعلين والصفتين واحد.

وإذ نعود على ذي بدءٍ، نقول إن للإنسان هدفاً روحياً أسمى في حياته، **هو الحياة مع الله**، يبدأ فردياً خاصاً يختص بكل فرد في ذاته ينشىء فيه حياة داخلية خاصة ذات سمات روحية خاصة لحياته الأبدية الخاصة؛ وينتهي حتماً **بعمل أو بأعمال ظاهرية** تكون تجاه الآخرين هي بحدِّ ذاتها هدف آخر في الحياة يختص بالله نفسه، إذ يعمل على تحقيق ملكوته في الزمن وعلى الأرض. ومن الهدف الأول والهدف الثاني تكمل حياة الإنسان؛ ويكمل عمل الله؛ وتكمل خطة الخليقة والخلاص.

يستحيل الحياة بأحد الهدفين دون الآخر:

والإنسان الروحي لا يمكن أن يحيا بهدف واحد من هذين الهدفين دون الآخر. إذ يستحيل عليه أن يقتنص في تأملاته وصلواته وخلواته صفات جوهرية كالحب والرحمة وخشية الله، مع لطف وإيناس وفرحِ الروح، وعمق الرؤيا، ودقة السمع في توجيهات الله؛ ثم يطيق بعد ذلك أن يعيش محصوراً في ذاته أسيراً لأنانيته عازفاً عن أنين الآخرين، غير متعاطف، غير مسامح، بليدَ الحسِّ تجاه المتألمين، كفيف البصر تجاه المحتاجين، أو يعجز عن أن يواجه الشدة باللطف أو يخفق في أن يحتوي العداوة بالحب. فالصفات الأولى هي صفات الحياة مع الله، وصفات الحياة مع الله هي هي تحقيقٌ فعلي لوصايا ملكوته وإعلانٌ عن حكمه وحكمته.

فإنسان الروح يوظِّف صفات الروح لخدمة الروح تجاه الآخرين. وسيَّانٌ هذا الآخر أيّاً من كان، صديقاً أو عدواً، لأن الحبَّ المكتسَب من الله لا غرض له ولا مقابل، ولا عائقَ يعوقه عن أن ينفذ فعله بالكامل، ولا مشجِّعَ يستزيده ويستعطفه. فالحب الإلهي مِلْكٌ لكل من احتاج إليه، والعدو والغضوب والقاسي والجاحد والخائن والشرير هم أحوج الناس إلى الدفء به.

واقعنا الروحي من خلال الهدفين:

هذا كلام حلو، أيها الأحباء، ولكن الواقع مرٌّ كالعلقم والأفسنتين، لأن معظمنا لا يعيش لا للهدف الأول ولا للهدف الثاني، ويكاد يستثني نفسه من كل ما قيل؛ فقد انعدمت الآذان التي تسمع، والعيون التي تبصر، والقلوب التي تفهم، وغلظ العقل ـ حسب قول المسيح (مت ١٣:١٣)، وصارت كل الحواس تخدم بهمة ونشاط ومهارة أعواز هذا

الدهر ومشاغل الجسد ومسرات النفس، ولا تعي إن كان للروح حقّاً حواس أو أن لله حقّاً كلاماً، وحتى وإن اعترفت بوجودها وحتى وإن علَّمَتْ ووعظت بمثل هذا، فلا هي حقّاً تسمع ولا هي حقّاً تعمل.

فمعظمنا يعيش نهاره كيفما اتفق، وإذا جاء الليل فهو راحة من العمل، وكفى، نقضيه كيفما اتفق وكيفما تفرضه الظروف أو نفرضها، ولم يَعُدْ للحياة الأبدية لا مكانٌ ولا زمان، لا بالنهار ولا بالليل، أما الخلود إلى النفس فهو مَكْرَهة للنفس، تهرب منه لأنه يفضح حالها؛ وأما الاستماع إلى الله ففيه استحالة، لأن الأذن تليَّف عصبُها الروحي فلم تعُد تسمع إلا صفير الدنيا وهمومها أو مسراتها. الأحداث تحركنا ونحن لا نحرك لها ساكناً، وأخلاقنا التي ورثناها من الناس هي التي نعامل بها الناس. أما وصايا الله فلا تتعدى اللسان، نتكلم عنها ولا نعمل بها. وهكذا غابت عنا أصول الحياة الأبدية؛ وتُهنا نحن بإرادتنا عن ملكوت الله.

أين نحن من مسيرة الروحيين وأهداف الحياة المثلى؟ أين ومتى ضاعت منا النظرة إلى الله وملكوته التي كان ينبغي من أجلها أن نعيش ونشقى ونسعد معاً؟ ولكن مهما تصوَّرنا أننا ضيَّعنا أهداف الحياة الروحية أو مهما توهمنا أنها ضاعت منا فعبثاً نحاول أن نغش أنفسنا أو الله؛ **فهي قائمة في لحمنا وعظامنا تنخر في ضمائرنا، فجبلتنا جُبلت لتحيا مع الله وتتحدث إليه، ونحن وُلدنا من الله لنصنع مشيئته!** ولا مفرَّ من أن نواجه أعماقنا قبل أن تواجهنا لنعطي عنها الحساب، حساب الخسارة؛ ونحن مسئولون عن ملكوت الله لأن هذا سمَّاه الكتاب: «**حساب الوكالة**» (لو ١٦:٢)، لأننا محمَّلون بمواهب وعطايا هذا عددها وهي كامنة في كياننا، ولكن لم نتاجر بها بل ولم نتعرف عليها. وكلُّ يوم يمر علينا دون أن نصنع خيراً ونكمل وصية ما، حُسب علينا يوماً ضائعاً، وحُسبنا فيه معوَّقين أردياءَ لاستعلان ملكوت الله.

مرة أخرى أعيد عليكم القول لعلكم تستيقظون:

كلُّ إنسان في المسيح قَبِلَ الرب فادياً ومخلِّصاً، قد حُسب من بني الملكوت! ونالَ التبني! مهما كانت قامته ومهما كانت ظروفه؛ وقد فُرض عليه هدفان فرضاً لأنهما كائنان في صميم خلقته، وهما متهيئان للعمل بضمان عمل دم المسيح وحراسة الروح القدس، وهما متهيئان للعمل ليل نهار في كل ساعة وكل خطوة وكل كلمة، لو أطعنا الروح:

الهدف الأول:

أن يعيش الإنسان مع الله كل يوم وكل ساعة. وهو مدعوٌّ إلى ذلك رسمياً، ومقيَّدٌ اسمه في وليمة المدعوين للاقتراب من الرب وسماع كلمة من فيهِ، إنما بأذن جديدة وعين جديدة وقلب جديد وفهم جديد. إنه مدعوٌّ أن يكون من خاصته ـ إذا لم يرفض هو ذلك ـ سواء في لحظات الهدوء والسكون الداخلي أو حتى وفي وسط ضجيج العمل، هو مدعوٌّ إلى ذلك.

فهو مدعوٌّ، بالدرجة الأولى، حينما يعود إلى مخدعه، أن يباشر حديثه السرِّي مع الحبيب وليس من رقيب، وهذه أوقات هنيَّة تنفتح فيها حواسه الداخلية ليرى ويسمع ويدرك أمور الحياة الجديدة مع الله، شيئاً لم يكن يسمعه ولا يراه ولا يفهمه من قبل؛ فيتحرك ضميره، ويتغيَّر فكره، وتتجدد إرادته، وتتشجع مسيرته، وتبتهج سيرته.

هي لحظات يتعلم فيها كيف يتغير كل يوم بل كل ساعة وفي كل مناسبة، ليكون حسب قلب الله ومشيئته، فيُحسب آنئذ مواطناً سماوياً صالحاً ووريثاً مع المسيح لله، يأخذ منه دالة البنين التي بها يتحدث إلى الله بضمير ليس عليه خطية، حتى ولو كان فيه خطية. فالاعتراف لدى الرب وفعل الدم ضمينان لذلك بشهادة يوحنا الرسول: «إن اعترفنا

بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم... ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية» (١يو ١:٩،٧)؛ حيث يعلِّمه الروح القدس طريق الطهارة والبر وفرحة القداسة والتقوى، وحيث يخلِّص جسده من تسلُّط إبليس ويفكُّه من رُبُط الديون القديمة المتراكمة.

الهدف الثاني:

وهو أيضاً في صميم كيانه، كامنٌ في جوهر خليقته الجديدة، منبثٌّ في موروثات خلايا عقله وجسده ونفحات روحه وحركة ضميره، شاء ذلك أو أبى، وهو أن يكون عاملاً شاهداً لملكوت ربنا كابن استؤمن على وكالة أبيه، يعلن الوصية التي اقتبلها بروحه ويردد الصوت الذي سمعته أُذناه ووعاه قلبه وروحه، يعلنه ويردده لدى كل إنسان: عملاً لا قولاً، وفعلاً لا وعظاً.

أي أن الهدف الثاني الذي فُرض عليه، أو بالحري وُهب إياه، هو أن يجسِّد ملكوت الله ويعمل على تكميله واستعلانه لدى كل إنسان بلا مانع، وذلك بأن يحبَّ، ويحبَّ من كل القلب، حباً كالحب الذي أحبنا به ربنا يسوع المسيح وقدم فيه حياته من أجل الخطاة.

يحب دون أن ينظر إلى من يحب بل من أجل ماذا يحب.

يحب دون أن يعتبر أية معوقات لحبه، سواء كانت تلك المعوقات اسماً أو ديناً أو عقيدة أو عداوة مصطنعة من العدو.

يحب ليكمل الوصية، ليبني ملكوت ربنا ويعلن عن تحقيقه في ملء الزمن وعلى الأرض، ويمارس على مستوى الروح كل الوصايا من لطف وأحشاء رحمة وتودد وصفح بلا تحفُّظ وبذل حتى تقديم الذات للموت، ليس لكي يُمتدح، بل لكي يمجد الله ويشهد لصلاحه.

فتكميل ملكوت الله موكول إليك وعليك، والشهادة لوجود الله وصلاحه وُضعت على عنقك لتعلن عنها وتشهد لها في وقت الضيق قبل الفرج؛ بل وفي محنة الظلم وأتون العداوة والبغضة، فإنه يلزم أن تعلو المحبة كراية خفّاقة لملكوت الله.

وأعود وأكرر في الختام:

إننا لسنا أحراراً أبداً في أن نختار هذه الأهداف أو أن نستعفي عنها، بل هي أمانة حياة استلمناها في صميم خلقتنا، وهي كائنة كامنة في كياننا، متهيئة للعمل في كل لحظة بمعونات تفوق العقل والتصوُّر؛ وسوف نحاسَب عليها، ليس في نهاية الدهر وحسب، بل ومنذ الآن وفي كل أوان، لأن أي استعفاء من تتميمها والعمل بها يضعنا في الحال في موقف معاكس لمشيئة الله، مقاوم لتيار مسار الروح القدس المنبثّ في خلقتنا، فنوجَدَ وكأننا صرنا أعداءً لأنفسنا، أعداءً لحياتنا. فتثقلَ علينا الحياة جداً دون أن ندري أننا السبب في هذا التثقيل والمقاومة والاحتكاك، إذ نصبح ضد تيار الحياة لا معه، فتضيع منا قيمة الحياة؛ بل ويضيع أثمن ما فيها أي أن نكون مع الله وأن نشهد لله — بل وتضيع منا بذلك الحياة نفسها، إذ نفرّغها من جوهرها ونبترها عن هدفيها، فلا تعود مثل هذه الحياة تُفهم ولا تعود — بالتالي — تُطاق.

كتابات الأب متى المسكين

(أكتوبر ٢٠٠٩م)

كتب صدرت بعد نياحة الأب متى المسكين:

- أبونا القمص متى المسكين (السيرة الذاتية).
- أبونا القمص متى المسكين (السيرة التفصيلية).
- رسائل الأب متى المسكين.
- صلوات الأب متى المسكين.
- أحاديث الأب متى المسكين.

***

سلسلة "مع المسيح":

- مع المسيح (الكتاب الأول).
- مع المسيح (الكتاب الثاني).
- مع المسيح (الكتاب الثالث).
- مع المسيح (الكتاب الرابع).

سلسلة شروحات الإنجيل:

- القديس بولس الرسول
- شرح رسالة رومية
- المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا
- شرح إنجيل القديس يوحنا — ج ١
- شرح إنجيل القديس يوحنا — ج ٢
- شرح الرسالة إلى العبرانيين
- شرح الرسالة إلى أهل أفسس
- شرح الرسالة إلى أهل غلاطية
- شرح الإنجيل بحسب القديس مرقس
- شرح سفر أعمال الرسل
- شرح الإنجيل بحسب القديس لوقا
- شرح الإنجيل بحسب القديس متى
- الرسالة الأولى للقديس يوحنا الرسول: شرح وتفسير
- المزامير: دراسة وشرح وتفسير، في أربعة مجلدات. المجلد الأول: المقدمة
- المزامير: دراسة وشرح وتفسير. المجلد الثاني: من مزمور ١ حتى ٤١
- المزامير: دراسة وشرح وتفسير. المجلد الثالث: من مزمور ٤٢ حتى ٨٩
- المزامير: دراسة وشرح وتفسير. المجلد الرابع: من مزمور ٩٠ حتى ١٥٠

مجلّدات في مواضيع متنوعة:

- حياة الصلاة الأرثوذكسية
- الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار
- القديس أثناسيوس الرسولي
- المسيح: حياته وأعماله
- النبوّة والأنبياء في العهد القديم

سلسلة دراسات في التقليد الكنسي:

- التقليد المقدس
- القديسة العذراء مريم (ثيئوتوكس)
- الصليب المقدس
- التسبحة اليومية ومزامير السواعي
- الإفخارستيا عشاء الرب
- إفخارستيا عشاء الرب (قداس الرسل الأول وهو نواة جميع القداسات)
- المعمودية: الأصول الأولى للمسيحية

سلسلة الرؤية الإلهية للأعياد الكنسية:

- أعياد الظهور الإلهي
- الصوم الأربعيني المقدس
- مع المسيح في آلامه حتى الصليب
- القيامة والصعود

- الروح القدس الرب المحيي (في جزئين داخل كيس واحد)
- التجسد الإلهي في تعليم القديس كيرلس الكبير (مع عظة الميلاد للأب متى المسكين)
- ميلاد يسوع المسيح ابن الله
- رسالة الميلاد لنا اليوم، وعمانوئيل الذي تفسيره الله معنا

مقالات تصلح للخدام والشباب:
- الخدمة (٣ أجزاء معاً)
- المسيحي في المجتمع
- المسيحي في الأسرة
- كيف تقرأ الكتاب المقدس
- في التدبير الروحى
- توجيهات فى الصلاة

أسبوع الآلام:
- لأعرفه وقوة قيامته
- مع المسيح في آلامه وموته وقيامته

عيد القيامة المجيد:
- القيامة والصعود
- القيامة والخليقة الجديدة
- القيامة والرجاء الحى
- قيامة المسيح هي فرح البشرية الدائم

عيدا الصعود والعنصرة:
- عيد الصعود في اللاهوت الكنسي
- رسائل ومقالات في عيدي الصعود والعنصرة
- يوم الخمسين في التقليد الآبائي
- الروح القدس وعمله داخل النفس
- مع الروح القدس في جهادنا اليومي
- يوم الخمسين وميلاد الكنيسة
- مقالات منفصلة عن عيدي الصعود والعنصرة

صوم الرسل:
- صوم الرسل وعيد الرسل

صوم العذراء وعيد صعود جسدها:
- صوم العذراء القديسة مريم وعيد صعود جسدها إلى السماء
- مع العذراء القديسة مريم

عيد النيروز:
- الشهادة والشهداء (انظر: قصص مسيحية للحياة)

مجموعة مقالات في اللاهوت (ألقاب المسيح)
- ألقاب المسيح (مجلد)
- ماهية المسيح ـ لاهوت المسيح الذي حدد مصير الإنسان
- المسيح ابن الله
- ابن الإنسان
- المسيح والمسيَّا
- المسيح رب
- المحبوب
- الفدية والكفارة
- الخلاص والإيمان
- عمانوئيل
- رئيس الحياة
- أنا هو نور العالم
- العريس
- أنا هو الطريق والحق والحياة
- أنا هو خبز الحياة
- أنا هو الكرمة الحقيقية وأبي الكرَّام
- حمل الله
- أنا هو القيامة والحياة
- مشتهى كل الأمم
- أنا هو الراعي الصالح

في الموضوعات الروحية العامة:
- التوبة
- التوبة والنسك في الإنجيل
- العمل الروحى
- الفضائل المسيحية بحسب الإنجيل
- رسائل القديس أنطونيوس
- الإيمان بالمسيح
- حبة الحنطة
- أين شوكتك يا موت
- التبرير
- الوحدة المسيحية
- الكنيسة والدولة
- ملكوت الله
- المرأة حقوقها وواجباتها
- الكشف الأثرى في دير القديس أنبا مقار عن رفات القديس يوحنا المعمدان وأليشع النبي
- لمحة سريعة عن دير القديس أنبا مقار والرهبنة في مصر
- سيرة القديس أنبا مقار
- رسائل روحية
- غاية الحياة المسيحية
- القديس أنطونيوس ناسك إنجيلي
- رأي فى تحديد النسل
- الكنيسة الخالدة
- كلمة الله : خدمة وشهادة وحياة
- الوحدة الحقيقية ستكون إلهاماً للعالم
- لقد وجدنا يسوع ـ دعوة تعارف
- قصة الإنسان (حول الخطية والخلاص)
- تغيَّروا عن شكلكم
- حاجتنا إلى المسيح
- الكتاب المقدس رسالة شخصية لك
- النعمة في العقيدة والحياة النسكية
- الحدود المتسعة للإيمان بالله
- فى تعليم المبتدئين
- ميلاد المسيح وميلاد الإنسان
- نصائح لرهبان جدد + اختبار الله في حياة الراهب
- تاريخ إسرائيل
- كيف سيدين المسيح المسكونة بالعدل
- الحكم الألفي
- أنشودة للتجسُّد
- الخلقة الجديدة للإنسان في الإيمان المسيحي ـ الجزء الأول
- الخلقة الجديدة للإنسان في الإيمان المسيحي ـ الجزء الثاني
- رسالة توعية
- "الإنسان والخطية" رسالة سلام للنفس المتعبة
- رسالة حياة لمن يطلب الحياة "تسليم الحياة للمسيح"
- الله واحد مع شرح صلاة "أبانا الذي في السموات"
- فن الحياة الناجحة
- كيف نبني أنفسنا على الإيمان الأقدس
- التحولات الروحية السوية
- إرشادات روحية للرهبان
- توجيهات ونصائح رهبانية
- متى صليتم فقولوا أبانا الذي في السموات
- قصص مسيحية للحياة (في مجلد واحد) (وهي تشمل ١٥ قصة طُبعت منفصلة في ٩ كتيبات صغيرة وعناوينها كالآتي):
- سفراء من العالم الآخر
- في زقاق المسيحيين
- قصة استشهاد الرسولين بطرس وبولس
- النيروز وذكرى أيام الشهداء

- أيقونة جميلة
- قصة استشهاد مؤثرة للغاية
- قصة طهارة واستشهاد بارع، القديس فوكا البستاني، فلسفة الموت عند شهداء مصر
- أولوجيوس والمقعد الرذيل، المحارب العجوز
- تاييس امرأة الأساطير، القديسة ميلانية العجيبة، صلاة فلاح، اتّباع المسيح وبهرجة الفلسفات

لا يمكن للقامة الروحية أن تكتمل في الإنسان، إلا إذا تصالحت القوى الغرائـزية الطبيعية مع القوى الفكرية والذهنية لتلتحم التحاماً منسجماً وأصيلاً بالروح القدس. وهذا هو الإنسان الكامل في المسيح، أو الإنسان الجديد الروحاني. على أن قول بولس الرسول: «تغيَّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم» (رو١٢: ٢) ما هو إلاّ إعادة مصالحة وتكميل التحام بين القوى الطبيعية المتمردة وبين القُوَى الذهنية المتأدبة تحت أقدام الإنجيل والروح القدس الذي يتمجد في القديسين، حيث يكون اتجاه النفس الكلي والموحَّد نحو هدف واحد، وهو حُبُّ المسيح، دون أي انقسام بين الجسد والفكر والروح.

الثمن ٥جنيهات